حكايا
قصص اللاجئين على
أبواب الأمل
سلام الغدير

حكايا

قصص اللاجئين على
أبواب الأمل

سلام الغدير

الناشر: منظمة جنى وطن

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

على أبواب الأمل بالحرية للشعب السوري

تعمل منظمة جنى وطن منذ تأسيسها في ٢٠١٤ على المناصرة لحقوق اللاجئين/ات، وكان من أنشطتها توثيق الانتهاكات على اللاجئين/ات السوريين/ات في لبنان، واللاجئين/ات المعتقلين/ات في لبنان، وكذلك المناصرة لحقوقهم في الإقامة والحماية، بالإضافة للتنسيق والتشبيك مع الجهات الدولية والمنظمات القانونية الفاعلة، ثم استمرت المنظمة بعملها في تركيا.
ولأنها تأسست من ناشطين/ات لاجئين/ات، يعتبرون أن قضية حقوق اللاجئين/ات من أهمّ اهتماماتهم من ناحية حقوق الانسان، وبسبب تشابك القضية بين الداخل والخارج السوري، وتحول القضية مؤخراً لقضية العودة الآمنة الطوعية الكريمة، كمطلب لشعب تم تهجيره، وتحولها لقضية ترحيل قسري من دول اللجوء الى الشمال السوري، دون أخذ اعتبار حق كل انسان بالعودة لمدينته وبيته الذي هُجر منه، وكذلك تشابه قضية اللاجئين/ات لقضية النازحين/ات من حيث المطلب والحل، وبهدف المناصرة لقضية اللاجئين وحقوقهم.
عملنا على هذا الكتاب ليكون واحدا من الكتب عن التهجير القسري والعودة القسرية، وما تحمله القصص من آلام وآمال نحو حياة أكثر أماناً واستقراراً.
جمع هذا الكتاب بعضاً من قصص اللاجئين/ات والعائدين/ات عن شخوص القصص الحقيقيين.
هذه القصص لا تشكل الا جزءاً يسيراً جداً من القصص للكثير من اللاجئين/ات والمهجرين/ات في أصقاع الأرض، وربما مروا من هنا.
هذا الكتاب مترجم للعربية والتركية والانكليزية لسهولة وصول محتواه للجميع.
كل الشكر لكل من تعاون في إنجاز هذا الكتاب، ونتمنى أن يكون فكرة لكتب مشابهة تحمل معاناة السوريين/ات عبر الحدود والقارات.
وكل الاحترام و التقدير لمساهمة مؤسسة الاورو متوسطية لحقوق الانسان (EMHRF)في انجاز هذا الكتاب، دون التدخل بمحتواه او تحمل مسؤوليته.

جنى وطن

إهداء

للسوريين الحالمين بغد أفضل والساعين نحو التغيير.

للمعتقلين في قيد العزّ وظلام الشرف.

لمصابين فقدوا بعض جسدهم ولم يفقدوا العزيمة.

للشهداء تحت التراب الغائبين بأجسادهم

وحاضرين بأرواحهم بيننا.

لأسرة في المخيمة تنتظر الرجوع لبيتها حتى لو كان كومة حجر.

ومعهم لأختي (براءة) التي نذرت حياتها لثورتها ورحلت غريبةً منفية ولَمن يشبهونها.

لهم جميعاً، ولكل من تصله هذه الحكايا التي ما هي إلا صفحة من وجعٍ سوري نتمنى أن ينتهي قريباً،

وعندها نحاول لملمة جراحنا، وما أكثرها!

مقدّمة

لأنّ حكايا السوريين كثيرة وموجِعة ومتفرقة في بقاع الأرض كلّها، كان لا بدّ لنا ونحن نحاول أن نجمعها، من التجول في ثنايا نفوس أصحابها والغوص في أعماق الحكايات المتناثرة.

كل حرف في كل حكاية هو مرآة وجع قُدّر له أن يصل إليكم، ولسان حال إنسان أنهكه اللجوء وسارت أقداره إلى حيث لم يكن قد خطّط لها.

بين أيديكم سردٌ يضع الحكاية السورية في سياق اللجوء الإنساني ضمن مكانها الصحيح، بشرٌ بحثوا عن حياة كريمة بعد أن طحنتهم آلة الدمار الوحشية وشظف العيش في أرض الله الواسعة، وما زال بعضهم في تيهٍ، وبعضهم أنهى تغريبته، وعينه على أهله يتمنى لهم النجاة.

فلتقرؤوا هذه الحكايا بقلوبكم إذاً، لأني أودعت فيها من الحرص والمحبّة ما يكفي ليجمع قلوبنا كبشر قبل أي شيءٍ آخر.

وأستعير من والدي (مصطفى الغدير) الذي كتب في مقدمة ديوان شعر له جملةً لأقولها لكم:

أيّها الناس، من شتى الأجناس، لكم حبّي، وحرصي، ومودّتي .....

لكم أحببتُ هذه الجملة وتمنيت من كل قلبي أن أوصلها للناس،كلّ الناس.

سلام الغدير

براءة والحلم الضائع

إنه يوم شتوي مشمس، لكنها شمس باهتة، كما شمس أيام كثيرة مرت على السوريين الذين تقاسم أغلبهم وجع الفقد حتى صار جزءاً من حياتهم.

كانت الأم مع أولادها في الطريق إلى المستشفى.

نعم المستشفى فمنذ منتصف الليل وردهم اتصال هاتفي ليقول لهم بكل بساطة (البقاء لله)، وأخفى الثلاثة عن أمهم الخبر حتى الصباح.

بعد أن صلّت الفجر وقرأت ما تيسر لها من القرآن وكل أورادها الصباحية وشربت الشاي الذي اعتادت أن تبدأ به يومها، وجدت ابنتها تجلس القرفصاء قرب المدفأة لتقول لها: (وجهك ليس على ما يرام) -لقد كانت ماهرةً في

قراءة الوجوه- وقد صدق حدسها كما في كل مرة. لتجد الثلاثة يلتفون حولها بدموعهم، وسرعان ما تفهم لتلجأ إلى ربها بالدعاء بصوت تخنقه الدموع، وتسارع معهم للذهاب إلى المستشفى.

هناك تستلم العائلة الجثمان ليواجههم السؤال: (أين تدفنون ابنتكم؟) ويأتي قرارهم: (هنا، أجل هنا في منفاهم، حيث يستطيعون على الأقل زيارتها كلما شعروا بالشوق إليها).

ربما يكون من حسن حظهم أن لديهم الكثير من الأصدقاء والمعارف هنا ليشاركوهم تفاصيل ذلك اليوم العصيب، حيث صلى عليها رجال ونساء كثر، بما فيهم أختها التي كانت تؤدي صلاة الجنازة لأول مرة في حياتها، حيث لم تكن قد اعتادت الأسرة أن تشارك النساء في الجنازات. تلك الأخت، يبدو ومع الأسف أن المرة الأولى في حياتها مرتبطة بأحداث موجعة.

في مجلس العزاء يزدحم الناس بشكل لافت. تعتقد الأسرة أن السبب بذلك أن فقيدتهم الشابة مضيافة وتحب الناس كثيراً. وكعادتهم في اليوم الثالث يقيمون عند نهاية العزاء مراسيم يسمونها (الفاتحة) ليُذكر فيها بعض من تفاصيل حياتها وعن تعلقها بوطنها، وقبلها وعند نهاية ختمة القرآن تدعو أختها- وكانت ليلة الجمعة- للشهداء والمعتقلين والمهجرين، لقناعتها بأن قلب أختها الراحلة كان معهم، وأنها لم تتكلم إلا بلسان حالها تحت التراب.

وبعد ذلك، تعود تلك الأسرة المفجوعة إلى البيت لتبدأ بمحاولة التأقلم مع الحياة بدونها، في محاكاة لحال كثير من أهل سورية المفجوعين. وللتأقلم طرق متعددة: (اتباع بعض تصرفاتها المنزلية كي لا يشعروا بأن شيئاً قد تغير، ومنها التواصل مع كل من تحبهم داخل سورية أو في الشتات، ولعل من بين ذلك صديقة اتصلت بهم لتقدم التعزية، وتخبرهم بأنها منذ عرفت الخبر وهي تحدّث أهلها عن ذكرياتها معها ومع بعض الأصدقاء المشتركين، ومنهم من استشهد وسبق تلك الشابة إلى أجله).

تحتار الأسرة ماذا تفعل لكي تتعافى من فاجعة الفقد. يحاول الابن محاولاتٍ كثيرة أن يكابر ويكتم حزنه، إلى أن ينوء جسمه من ثقل الحزن ويهاجمه المرض ويضطر لإجراء عمل جراحي بعد ذلك بمدة قصيرة.

قد يبدو الأمر عادياً لكثيرين، فالموت نهاية حتمية للناس كلهم، ولا شيء يلفت عناية من يقرأ إلا إن عرف شيئاً عن حياة تلك الشابة.

براءة ولدت في مدينة دير الزور وعاشت حياتها فيها، وورثت عن والدها الذي كان شاعراً وكان متعلقاً بمدينته لأبعد حد، وكتب عنها قصيدة صارت مع

الأيام هوية للمدينة، ورثت عنه حب المدينة. وكانت حياتها ملأى بالطاقة. درست الرسم، ورغم انها لم تكن رسامة ماهرة، لكنها كانت مبدعة في كل ما تنتجه، وتخترع شيئاُ من لا شيء. فتراها تصنع الهدايا للأهل والأصدقاء بنفسها. كانت لديها قدرة عطاء خارقة، فلو سمعت أحداً يمتدح طعاماُ صنعته أو ثوباً لبسته، تقدمه له بسرعة ومن دون تفكير.

ومع قيام الثورة في أذار ٢٠١١، شاركت بها وبكل اندفاع. لم تكن مشاركتها في الحقيقة تقتصر على التظاهر فلقد كانت مثلاً: تشتري القبعات لكي تعطيها للمتظاهرين لحمايتهم من أشعة الشمس الحارقة. وتمضي الأسبوع كله وهي تجمّد مع الأسرة الماء في الثلاجة لكي يشربه المتظاهرون يوم الجمعة. وسبب ذلك بأن بيتهم يقع أو للدقة- كان يقع لأنه تعرض للقصف بعد ذلك- عند الساحة العامة التي تصب بها بحور المتظاهرين من كل أحياء المدينة. كانت مع أمها تذهبان لعزاء كل شهيد في المدينة سواءً تعرفانه أم لا، ومع هذه التعازي شهدتا الكثير من المواقف، لم يكن أولها أن ينقطع الطريق بهما إلى البيت بسبب العمليات العسكرية، ولا آخرها يوم لجأتا للاحتماء من القصف لبيت أسرةٍ لا يعرفونها واكتشفوا بعد ذلك بأن رب البيت الكبير صديقٌ قديمٌ لجدّها.

ومع التحركات العسكرية التي عاشتها المدينة مثل غيرها من المدن السورية بدأت قذائف المدفعية تمطر فوق رؤوس الناس، وبدأت الناس تنزح نحو القرى أو المدن المجاورة، خوت حارتهم على أعقابها، فاضطروا للخروج نحو مدينةٍ أخرى ريثما يستطيعون ترتيب أمورهم. هناك تطوعت مع جمعيةٍ خيرية ونشطت فيها، ووصل الأمر بها أن تخرج من البيت لأكثر من اثنتي عشرة ساعة.

وعندما قررت الأسرة العودة بعد أن تدبّروا أمورهم قليلاً، وكان الابن ينتظرهم عند مدخل المدينة، وبيوم صيفي حار تصادف مع غرّة رمضان، وذلك كان الرمضان الأول الذي تعلن الثورة فيه عن رؤية الهلال بمعزلٍ عن النظام، فصامت الأسرة لأنهم عندما سألوا عن الأمر أفتى لهم مَن يثقون به بأن يصوموا مع الذي يدينون له بالولاء.

وصلوا عند جسرٍ يدخلون منه للمدينة فمنعتهم قوات النظام من الدخول وصاروا يتواصلون مع ابنهم عبر شبكة الاتصالات الضعيفة ولم ينجحوا بدخول المدينة رغم أنها كانت على مرمى نظرهم.

في الحقيقة كان المشهد لا يوصَف، الأم وبناتها عند طرف الجسر والابن عند الطرف الآخر ولا يستطيع أيٌ منهما الوصول إلى الآخر، وكلما تذكرت

هذه الحادثة تقول بأنها تشبه حال الفلسطينيين الذين يتواصلون عبر مكبّرات الصوت. فعادوا أدراجهم من حيث أتوا، ولكنهم لم ييأسوا وأعادوا الكَرّة، وبصعوبةٍ بالغة نجحوا في دخول المدينة، وبسرعة بدأت براءة تفعل ما تستطيع للمساعدة، وكانت من أنشط النساء في المدينة بتلك الفترة لدرجة أنها مع شقيقاتها كنّ الوحيدات اللواتي شاركنَ بمظاهرة ضد الانتهاكات بحق المدنيين من قبل إحدى الفصائل العسكرية.

ومع دخول داعش إلى المدينة تراجع النشاط المدني وعاشت المدينة انتكاسةً في كل الميادين، وتغيرت خارطة العمل العام وعادت الناس إلى نقطة البداية في الكثير من التفاصيل وفُرِضت قيود كثيرة خاصةٍ على النساء. وهنا فكرت تلك الشابة النشيطة ماذا وكيف تفعل من أجل الحفاظ على ما كانت تعتقد أنه مكتَسباتٌ للمجتمع.

وبين الصعب والأصعب عاشت الناس في ظل حكمهم القاسي إلى أن ضاقت الأحوال بالناس واشتد قصف الطيران فوق رؤوسهم. شهدت تلك الأحياء حالة نزوحٍ جديدة قاومتها الأسرة كثيراً إلى أن صار بجوارهم مقرٌ أمني للدواعش ما جعلهم يقررون الخروج. وهنا كانت داعش قد أغلقت الطريق وبعد بحثٍ طويل وجدوا طريقةً للخروج في حافلة يجلسون داخلها ويغطونها بألواح التبن بحيث لا تراهم الحواجز، وركبوا بالفعل مع أشخاص آخرين.

وعندما تقف السيارة عند حاجز يسكن الهواء القليل في المكان المغلق فيشعرون بضيق تنفس يصل أحياناً إلى الإعياء الذي جعل إحدى المسافرات تدق الباب بقوة تريد الخروج بأمها التي لم تعد تتحمل التهوية السيئة في المكان مهما كلّف الأمر. ومن حسن حظها كان ذلك بعيداً عن الحاجز ومشت بهم الحافلة حتى الشمال. ولا تنسى براءة وأهلها كيف فُتِح الباب وشاهدوا البيرق الأخضر من جديد يرحب بهم، لقد شعرت بأنها تسترد روحها مرةً أخرى.

وفي إدلب إحدى محطات رحلتها، كوّنت صداقاتٍ جديدة، ولم تكن ترغب في الخروج إلى تركيا، ذلك القرار الذي احتاج الكثير من النقاش فيما بينهم وعندما اتفقوا على هذا القرار الصعب، ودخلوا من البوابة، كأن ذلك كان آخر عهدها بالحياة والطاقة، وما إن دخلت إلى البيت الذي استأجروه، حتى قررت عدم الخروج منه. أجل، قررت ذلك والتزمت بقرارها، وكان السبب بهذا القرار أنها مقتنعة بأن الثورة هناك في سورية.

ولكنها لم تتوقف عن فِعل ما تستطيع لمناصرة الثورة. فشاركت في إضرابٍ عن الطعام من أجل اللاجئين السوريين في لبنان ورفع الظلم الواقع

عليهم. وكان أن شاركت معهم شابة لبنانية، وتكونت بعد ذلك بينهما صداقةٌ عميقة تجاوزت الطائفية والعنصرية، تلك الصديقة التي طلبت من أختها بعد دفنها أن تشاركهم زيارة قبرها وقراءة الفاتحة عبر الكاميرا.

ونفّذت لوحدها إضراباً عن الطعام من أجل فتح ممرٍ آمن لخروج أهالي البوكمال بعد تنازع السلطة بين النظام وداعش وحصر المدنيين هناك بين المطرقة والسندان كما يُقال، وأصيبت بعدها بحالة من النحول وسوء التغذية، وكانت كذلك تدرس لغة الإشارة وحاولت نشر فيديوهات قصيرة عن الثورة وأحلام السوريين ومعاناتهم.

كانت براءة ورغم إصرارها على عدم الخروج تهتم بكل الأصدقاء والمعارف السوريين، بل وحتى الأتراك الذين كانت تتواصل معهم رغم أنها لا تتكلم التركية، والكل يستغرب كيف استطاعت تكوين صداقاتٍ معهم، وقد حضرن العزاء وبكين عليها بحرقة. احتفظت الشابة بكل ما تستطيع من ذكريات عينية عن مدينتها وعن الثورة وعن المواقف الجميلة.

بينما كانت براءة تحاول أن تستمر في إحياء ثورتها في نفسها وفي نفوس مَن حولها، بل وفي نفوس كلّ السوريين لقناعتها بأن يوم النصر هو يوم العودة التي تعيش على أملها.

وذات مساء تشعر ببعض الإعياء ويهبط ضغط الدم عندها فيسعفها أهلها إلى المستشفى، وترقد لأيامٍ هناك مع استغرابهم الشديد لأنها كانت بكامل عافيتها وفي آخر زيارةٍ لهم إليها قالت لهم الطبيبة بأن الضغط قد استقرّ وأنها سوف تصحو بأقرب وقت. وفي ذات الليلة جاءهم ذلك الاتصال الذي أخبرتكم عنه في بداية الحكاية.

ولأن لبراءة وجه معاناة مختلفٍ مع اللجوء ليس كمثل غيره من ضعف الحال المادي ومشاكل في الأوراق الرسمية وصعوبة تحرك، وإن الأمر عندها هو حالة رفض استثنائية واحتجاجٍ صامتٍ أحياناً وصاخبٍ أحياناً أخرى، كان من المهم أن نعرف حكايتها، لنعرف معها أن السوريين لم يخرجوا من بلادهم برغبتهم وإنما بسيف ظلمٍ فوق رقابهم.

وكثيرون مثل براءة لم يستطيعوا العيش ومواصلة حياتهم، وتركوا قلوبهم حيث وُلِدوا وعاشوا، ولأن قلوبهم ظلت هناك تراهم يموتون حسرةً وهم في عمر القوة والعمل ودون مرضٍ واضح.

إنهم شهداء الغربة، قافلة جديدة تلتحق بقوافل شهداء القصف وشهداء الزنازين تحت التعذيب.

مصطفى الاسم الحلم

تنظر إليه وهو في طريقه إلى المدرسة في يومها الأول، تتنفس الصعداء وتبتسم بينها وبين نفسها لأنها تشعر أنها قد حققت انتصاراً على الظروف الصعبة.

وفي الحقيقة شعورها في مكانه ولم تبالغ أبداً إذ إن الوصول بالطفل إلى المدرسة في حالة رحمة يشبه الأحلام المستحيلة رغم أنه في الأحوال العادية حق من أبسط ما يمكن لأي طفل.

تمسك رحمة بيد مصطفى حتى باب المدرسة وتتركه وهو يركض أمامها

بين أطفال كثيرين. ثم تعود إلى المنزل وفي طريقها تعود بشريط الذكريات إلى سنوات خلت إلى يوم تعرفت على زوجها الشهيد والد مصطفى والذي كان زميلها في العمل، وبعد أشهر من الدوام في مكتب واحد تقدم لخطبتها وتم كل شيء على ما يرام وعاشا في منزل متوسط يشبه الحالة المادية المتوسطة لهما.

عملت رحمة على شراء كل شيء فيه بنظام التقسيط المريح أحياناً والثقيل أحياناً أخرى، وكانت في بعض المواقف تتشاجر مع زوجها الذي كان يراها تبالغ كثيراً في تكديس الطناجر والفناجين وفي تجميع الشراشف والمزخرفات. كانت ترد عليه حينها بأن ذلك أفضل بكثير من هدر ماله حسب وجهة نظرها، على الزرع الأخضر الذي تحول البيت معه إلى غابة صغيرة، وكانت تنتهي المشاجرة بينهما بالضحك والوعود أن يخفف كل منهما شغفه وهما يعرفان أن الآخر لن يفي بوعده ولكن يبدو أنهما كانا يستمتعان بتلك المنادمات الجميلة.

تكللت فرحتهما مع خبر المولود القادم بعد أشهر، لتعود المنادمات اللطيفة بينهما حول اسم الطفل. كان أبوه يصر على اسم مصطفى إن كان ذكراً، ومريم إن كانت أنثى، بينما أرادت رحمة أسماء أخرى وصارت تقترح عليه بين الحين والأخر أسماء تعتقد هي بأنها أكثر تميزاً من الأسماء التي أرادها. لكنه قال لها في إحدى الأمسيات بأنه يتمنى من كل قلبه أن يحمل لقب (أبو مصطفى) الذي اختاره منذ كان صغيراً، وتعوّد عليه حتى صار جزءاً من شخصيته. وعقدا اتفاقاً بأن يختارا اسم مصطفى للولد الأول وأن يكون لها فيما بعد حرية اختيار أسماء الأطفال الآخرين وإن كانوا عشرة. ضحكت رحمة حينها، وتساءلت إن كانا سينجبان كل هؤلاء الأطفال؟ أجاب حينها بأن لديه رغبة بأن يملأ الدنيا ضجيجاً من أطفاله، حتى وإن ازداد هذا الكون ازدحاماً.

ومع مرور أشهر الحمل عرفا بأن المولود القادم ذكر، وثبتت عليهما الكنية وصار يستمتع حين ينادي رحمة (أم مصطفى).

ومع انطلاق المظاهرات، وتوسع العمليات الأمنية التي كانت تسعى جاهدةً لوأد الحراك السلمي، تحولت أجزاء كثيرة من المدينة إلى ما يشبه الثكنات، وتقطعت الطرق وصار الوصول من حي إلى آخر أشبه بعملية فدائية.

ورحمة في هذه الظروف العصيبة، صارت تشعر بعبثية كل ما حضّرته للولادة منذ أيام حَملها الأولى، للمولود ولاستقبال المهنئين، ولعلب حلوى

خاصة محفور عليها اسم مصطفى لتبقى ذكرى عند الأهل والأصدقاء. في ذلك الوقت، صار مصطفى يركل أحشاء أمه ليخبرها بأنه يريد الخروج لنور الحياة.

صارت العائلة كلها في حيرة كيف يستطيعون الوصول بها إلى المستشفى، طبعاً ما عدا زوجها (أبو مصطفى) الذي توارى عن الأنظار، وترك البيت، وهرب إلى قرية بعيدة من طرق فرعية، بعد أن وصلته معلومات بأنه مطلوب لإحدى الفروع الأمنية.

ومن دون تفكير، لأن الوقت لا يسمح، ورحمة متعبة جداً، نزل بها أخوها وأخو زوجها بسيارة الجار الذي لبى طلب المساعدة، ومشت بهم السيارة من طريق الحواجز، وكانت المنطقة في حالة من عدم الاستقرار، لأن الأهالي في بعض الحارات وضعوا الدواليب وأشياء أخرى لاعتقادهم بأنها تعيق تقدم القوى الأمنية في اقتحاماتها المتكررة، وتتذكر رحمة جيداً كيف كان الشابان ينزلان عند بعض الحارات ليزيلا العوائق التي تمنع السيارة من متابعة طريقها إلى المستشفى. وتذكر كيف طلب منها أخوها مازحاً أن تسمّي الطفل (حاجز) وضحك الجميع بما فيهم رحمة.

وصلت السيارة إلى المستشفى ودخلت إليه، انتظروا في الخارج تحسباً لأي طلب مساعدة (دم-دواء)؛ لأن المستشفى كانت فقيرةً بكل شيء بسبب ازدحامها بالمصابين، وفيها ما يشبه حالة الطوارئ. وبهذه الظروف وضعت رحمة مولودها، لكنها بعد ذلك مباشرة طلبت من أخيها المرافق لها أن يعود بها إلى بيت أمها لكي تعتني بها، لأن الوضع في المستشفى صعب من الناحية الصحية والأمنية. وبالفعل كان ذلك وعادوا بها في السيارة نفسها وعبر الطريق نفسه، وهي تمنّي نفسها بأن يستطيع زوجها الملاحَق أن يأتي سراً ليرى مصطفى الذي حلم به سنوات طويلة.

ومع مرور الأيام، تضاءل أملها في ذلك وغابت أخباره تماماً. وسافر أحد إخوته للسؤال عنه، ليعرف أنه أحس بخطر قريب، وترك القرية التي هرب إليها. أخبر أهله بالأمر، فاضطربت العائلة، وشعرت رحمة بغصة كبيرة، وصارت تنظر لوليدها نظرة تختلط فيها المشاعر ما بين ترقب وانتظار وخوف إلى أن ....

تتذكر رحمة كيف وصلهم خبر تصفية زوجها على أحد الحواجز، بعد أن تمكن منه عناصر الأمن وحاول الهروب. تستلم الأسرة الجثة وتصر رحمة أن تري الطفل أباه. لقد كانت مقتنعةً بأن عين والده سوف تراه، ربما بطريقة

مختلفة عمّا يراه الأحياء، بل وشعرت أن عينه انفتحت عندما وضعت مصطفى في حضنه، وأقسمت بذلك لكل من حولها. عاشت رحمة بعد ذلك في بيت أهلها، الذي وبعد أشهر تعرض لقصف شديد، فخرجوا منه تحت وابل الطيران دون أي أوراق رسمية. ومضت بهم رحلة طويلة بمحطات صعبة وظروف قاسية، انتهت بهم في جنوب تركيا.

هنا تبدأ محطة جديدة في حياة رحمة وطفلها، محطة فيها الكثير من التحديات، ولعل أبرزها الأمر القانوني، لأنها واجهت صعوبة شديدة في منح ابنها اسمه ومعلوماته، لأنها لم تفلح في استحصال أوراق بدل التي فقدتها قبل هروبها من سورية، فلا عقد زواج ولا شهادة وفاة لوالد مصطفى. وأحيلت أوراق الطفل للشرطة، وبعد جهود مضنية وافقوا على منحها حضانته تحت رقابة دورية، ريثما تستطيع إثبات اسمه ونسبه.

مرت فترة من الزمن قبل أن تفلح رحمة في الحصول على ما تريده من الأوراق، ليس كلها بالتأكيد لأن كل ورقة تكلف جهداً خارقاً ومبالغ مالية كبيرة. كانت تضطر للعمل بساعات طويلة وأجر قليل، وتحت ضغط العقوبات التي قد تصل إلى الترحيل، كل ذلك لكي تستطيع تأمين الأموال التي تساعدها على تحصيل أوراق رسمية من أجل طفلها، كانت رحمة تعاني مع كل موقف عندما تأخذه للحصول على اللقاح، عندما يمرض وتحتاج إلى إسعافه، عندما تسافر من ولاية إلى أخرى.

وهكذا، تعيش مع طفلها في دوامة معاناة مستمرة لا تكاد تنتهي من مشكلة حتى تعترضها أخرى. وصل الأمر ذات مرة أن كتبوا بحقها مخالفة احتضان طفلها، واضطرت إلى إجراء تحاليل طبية هي وطفلها من أجل أن يتأكدوا أنها أمه ولم تخطفه مثلاً، وبعدها أعادوا الطفل لحضانتها، ولكن دون أن تتقدم أمورها الإدارية رغم نتائج التحاليل التي تثبت صلة الدم.

لقد فكرت في الحقيقة أن الأمور يمكن أن تتحسن مع إرسال تظلم للجهات المعنية، لأنها لم تعد تتحمل العبء المادي لدعوى قضائية جديدة، إذ إن والدها أصيب بمرض صار يمنعه من العمل، لذلك تحملت الأعباء المالية للبيت كاملة دون معين، إذ إن إخوتها تفرقوا بين من بقي في سورية وبالكاد يستطيع التكفل بأسرته، وبين عالقٍ في مخيمات اليونان منذ مدة ليست بالقصيرة، فلا هو يستطيع العودة إلى تركيا، ولا متابعة الطريق إلى حيث يريد. بل وكانت رحمة التي تعيش مع والديها وطفلها في بيت أفضل ما يمكن وصفه به بأنه متواضعٌ جداً، ولا تتلقى أي نوع من المساعدات.

كانت تحاول التخفيف عن إخوتها، رغم أنها كانت بحاجة لمن يخفف عنها، وكذلك كان يفعل والداها وإخوتها. لقد كانت دائرة مواساة كبيرة دون أن يخضع أحدهم لورشات في الدعم الاجتماعي أو دروس نظرية في التواصل ومهارات الحياة، وحدها المعاناة، والمعاناة فقط هي التي علمتهم مواساة بعضهم.

وتظلم وراء تظلم دون فائدة، فلا تحاليل إثبات النسب التي أرفقتها بالملف، ولا الأوراق التي حصلت عليها من سورية وكلفتها الكثير من المال وحرقة الأعصاب، أجدت نفعاً.

وهكذا تمضي رحمة أيامها مع المشكلة التي صارت محور حياتها، وكانت ما إن تعرف أو تسمع عن طرف خيط قد يوصلها إلى حل مشكلتها تتمسك به، بل وتركض خلفه، وللأسف يكون في كثير من الأحيان سراباً.

ومع مرور الأيام واقتراب مصطفى من عمر المدرسة، تستطيع رحمة وعن طريق جارة إحدى قريباتها، الوصول إلى جمعية أسرة تركية تهتم بشؤون النساء بما فيهن اللاجئات، ساعدتها تلك الجمعية في الحصول على ورقة تتمكن بواسطتها من إدخال ولدها إلى المدرسة.

هنا، وصلت رحمة إلى البيت مع وصول ذكرياتها إلى هذه المحطة. واستفاقت من شرودها مع صوت والدتها تناديها لكي تتساعدان في إطعام الأب وجبة فطوره، وهو يدعو لهما بوافر العافية والتوفيق.

وفي المساء، اتصل أحد أقاربهم الذي يعمل في الخليج ليخطبها، وحاول والداها إقناعها بالقبول، لكنها ترفض ذلك لأنها قرّرت أن تعيش لولدها، ولولدها فقط. يلومها والداها وإخوتها وكل مَن حولها، بينما هي مقتنعة بخيارها كل الاقتناع.

تشعر رحمة بكم هائل من الرضا، وتؤمن بأن مصطفى في حضن آمن، وبأنه كما تدخلت العناية الإلهية في دخوله للمدرسة، سوف ترافقه في صناعة مستقبل جميل يجعلها فخورةً به. ووالده الذي حلم به ولم تشأ الأقدار أن يربيه يكون مرتاحاً في رقاده البعيد هناك في سورية.ومع كل هذه المشاعر، تمتلك رحمة عزيمة هائلة لكي تكمل معركتها القانونية ليحمل طفلها اسمه الكامل. فهذا من وجهة نظرها أحد أهم حقوقه في الحياة، وهذا الأمل هو الذي يمدها بإرادة الحياة.

نعيش بالأمل

تضع أمل يدها بيد زوجها أحمد في محاولة كل منهما تخفيف الضغط عن الآخر، وهما يراقبان من خلف الزجاج طفلهما عمر تحت الأجهزة على سريره في العناية المركّزة، لأن جسمه لم يعد يتحمّل جلسات العلاج الكيماوي فدخل في غيبوبة.

عجيبة مفارقات القدر، تلك الجلسات التي سعوا من أجلها كل ما يمكن من سعي، بل وأكثر من الممكن لاعتقادهما بأنها السبيل الوحيد لتعافي الطفل ذي الأعوام الأربعة من السرطان.

ويكسر صمت الموقف صوت الممرضة تطلب منهما الخروج لأن موعد الزيارة انتهى. يديران ظهرهما ويمضيان خارج الغرفة بلا نقاش، لا يلويان على شيء، يبدو أنهما وصلا لحالة من اليأس.

الحوار الذي دار بينهما في الطريق يكاد يكون نفسه كل يوم: (ماذا بعد) يتناقشان ويطرحان كل الخيارات، من دون أن يصلا إلى نتيجة.

لنعد لحكايتهما منذ البداية، فقد أصيب عمر بالمرض وتم تشخيصه في المستشفى الميداني البعيد عن قريتهما بالأساس، وهنا دخل الأبوان في دوامة الحصول على الموافقات من أجل الدخول إلى تركيا بغرض العلاج.

عشرات العوائق المالية والإدارية وقفت في طريقهما، ولكن لم يتوقفا عن السعي، لقد نسي الأبوان كل مشاكلهما الأخرى، بل وتقريباً أهملا باقي الأطفال. وهذا قد يبدو منطقياً، لأن الابن المريض خاصة لو كان طفلاً، يستحوذ على تفكير واهتمام والديه.

كان المرض ينتشر شيئاً فشيئاً في الجسد الغض، وكانت أمل حينها تستحضر كل ما تعرفه من الدعوات والنذور من أجل الحصول على علاج لعمر. وقد جربت بعض الخلطات العشبية التي كانت تحصل على بعض مكوناتها بصعوبة بسبب بعد السافات تقطع الطرق وتنوع السلطات المحلية. فقد حدث مرة أن ذكروا لها منقوع الغَرَب الذي لا ينبت إلا على سرير نهر الفرات، وهنا بدأت بالتفكير بكيفية الحصول عليه، فالمنطقة بعيدة من جهة وتحكمها سلطة مختلفة من جهة أخرى ما يصعّب عملية

الحصول عليه. فكان أن طلبت المساعدة من إحدى جاراتها، وهي من دير الزور ونزحت إلى الشمال السوري مع دخول النظام إلى المنطقة التي تسكنها. وبدورها الجارة المتعاطفة معها طلبت المساعدة من شقيقها الذي يسكن في منطقة قريبة من سرير النهر، وصاروا جميعاً يدرسون الخيارات المتاحة لكي تصل النبتة- السحرية من وجهة نظر أمل- عن طريق المهربين وسائقي الشاحنات.

ما زالت تتذكر كيف تعاطف هؤلاء معها ورفضوا أن يتقاضوا أي أجور على إيصال أغصان الغَرَب إليها، وكيف احتالوا لحفظها طوال الطريق الطويل كي تبقى حيّة. والكثير من المواقف المشابهة، وما لا ينساه أحمد وأمل هو حالة التعاون والتعاطف والرغبة بالمساعدة التي لمسوها عند الجميع.

وبعد كثير من المحاولات، نجح الأبوان في استحصال إذن دخول إلى تركيا، ولكن المفاجأة أنها للطفل وحده، ما جعلهما يعودان إلى نقطة البداية في الاستحصال على إذن لدخول مرافق. واحتاج الأمر مدة انتظار جديدة، كان عمر خلالها يأخذ أدوية بسيطة ولكنهما صبرا حتى وصلت الموافقة، وهنا بدأت معهما مرحلة جديدة.

دخلت أمل برفقة عمر، ومن فورهما توجها إلى المستشفى ليبدأ برحلة الصور والتحاليل. كانت الأمور تسير ببطء شديد بسبب الروتين، ولم يبدأ الطفل بالحصول على العلاج إلا منذ مدة قصيرة، وبدأت الأمور بالتحسن مع العلاج الدوائي، وصار عمر يستطيع أن يمشي بل ويلعب قليلاً ما أدى إلى ارتفاع مناعته.

وخلال فترة الإقامة في المستشفى، رأت أمل الكثير من المرضى ومرافقيهم، واستمعت لقصصهم مع المرض وللكثير من الهموم والأوجاع. والأصعب فيها كان ما يترافق مع قلة الحيلة مع انعدام أو للدقّة شبه انعدام لفرص الشفاء.

أما الأكثر صعوبة -ومرة أخرى نقول من وجهة نظر أمل- كانت حكايا المرضى السوريين الذين لديهم معاناة إضافية تتعلق بالأمور الإدارية التي تزيدهم فوق الهمّ همّاً، وفوق الوجع وجعاً، فهذه التي تأخر دخولها حتى انتشر المرض بجسمها، وهذا الذي تركته زوجته بعد أن حوّله السرطان إلى إنسان شبه عاجز، وهذا وهذه.

ومن وسط هذا الوجع، تبرز حكايا التضامن والتعاطف بين المرضى. فقد

يحتاج أحدهم مبلغاً من المال يقوم آخر بتقديمه له على سبيل الهبة أو الدين، وهذا الذي يقيم دون مرافق فيتكفل مرافقو المرضى حوله بخدمته.

ولا تنسى أمل توبا الممرضة التركية التي كانت تهتم بعمر اهتماماً كبيراً، فتراها في كل حين تغدو حوله وتحرص أن تقدّم له بنفسها كل الخدمات الطبية المطلوبة، ورغم أن أمل لا تتكلم التركية والممرضة لا تتكلم العربية، فقد استطاعتا التواصل- ولعلها لغة القلوب- وعرفت أمل أن توبا فقدت ابنتها قبل سنتين بنفس مرض عمر، لذلك فهي ترى فيه خيالها وتسعد عندما تعطيه الدواء لاعتقادها بأن في هذا رحمةً تنزل على الطفلة التي حُرمت الحياة مبكّراً.

وتمضي الأيام بأمل التي بدأت تشتاق لطفلتيها نور وإيمان الموجودتين عند جدتهما في القرية، لكنها تصبّر نفسها بأن عمر بدأ يتحسن ولعل العودة قريبة. وبعد حزمة أخرى من الصور والتحاليل، قرر الأطباء أن موعد جرعات العلاج الكيميائي قد حان.

وهنا، ورغم أن أمل كانت تنتظر ذلك القرار، إلا أنها شعرت بخوف لم تستطع تحديد سببه. وما إن اتصلت بزوجها المنتظر بلهفة لأي خبر عن ولده حتى نزلت دموعها وتكلمت بحرقة وأخبرته، عندها فرح الأب وشعر بأنهم قد تقدموا خطوة للأمام، وصار يمازح أمل لعله يخفف عنها هذا الخوف، ويذكرهما بأحلامهما المشتركة يوم ولادة عمر والمتعلقة بمستقبله، وكيف اختلفا مزاحاً، هل سيتزوج ابنة عمه حسب رغبة الأب أم ابنة خالته حسب رغبة الأم؟

كل ذلك في الحقيقة لم يفلح في تخفيف التوتر الذي بدأ يستولي على أمل، وصارت العائلة كلها تتواصل معها لمواساتها، وكذلك مَن حولها في المستشفى بما فيهم توبا الممرضة.

وبعد يومين وبشكل مفاجئ، دخل أحمد إلى غرفة عمر في المستشفى. عندها قام عمر من سريره وهو يحاول احتضان والده الذي جثا على ركبتيه ليرتمي الطفل في حضنه.

بينما أمل مدهوشة من المفاجأة وبعد برهة من الوقت، توازنت أمل ريثما لعب أحمد مع عمر وأطعمه من الحلوى التي أحضرها معه من سورية، وكانت جدته قد صنعته له لأنها تعرف أنه يحبها، ومن الفاكهة الطازجة التي أرسلها بعض الأصدقاء والجيران من بساتينهم خصيصاً لعمر.

وقد استمتع الطفل وأخذ الكثير من الطاقة الإيجابية والنشاط، وطلب من والديه أن يذهبا به إلى الحديقة لأنه كان يتمنى أن يلعب معهما فيها. وافتقد نور وإيمان وعاتب والده لأنه لم يحضرهما، استجابا لطلبه وذهبوا جميعاً إلى الحديقة. بعد أن قال أحمد لأمل بأنه سيخبرها كيف دخل بعد أن يلعبا مع عمر في الحديقة.

ويبدو أنهما كانا بحاجة هذه النزهة مثل عمر بل وأكثر، وما إن وصلا حتى نسيا الكلام وانشغلا باللعب مع عمر الذي ضحك من قلبه كما لم يضحك من قبل.

وبعد عودتهم من المستشفى، حكا لها أحمد كيف استطاع الدخول بعد حصوله على بطاقة تاجر، دفع رسومها بعد أن ساعده قريبه المقيم في الخليج وأرسل المبلغ كاملاً.

ذهب أحمد للمبيت عند صديق له، لأن المستشفى لا يسمح إلا بمرافق واحد مع المريض. وفي الصباح حضر باكراً، لأن موعد الجرعة الأولى اليوم بعد الظهر. وكان الأبوان يحاولان فهم مضاعفات ما بعد الجرعة، ولكنهما لم يفلحا، لأن قلة المترجمين في المستشفى لم يسمح لهما بالظفر بواحد منهم ليساعدهما في ذلك. وما إن حان الوقت، حضرت الممرضة لاصطحاب عمر إلى القسم المخصص، ورفضت أن يرافقه أحد أبويه.

تأخر عمر، وبدأ القلق يتسرب ليس إلى قلبي أبويه فقط، بل لجميع مَن حولهم. ثم حضرت الممرضة نفسها لتخبرهم بأن الطفل لم يتحمل الجرعة، وهذا أمر مفاجئ لأن مناعته كانت جيدة ولكن ومع دخول الدواء لجسمه، بدأت العمليات الحيوية تتباطأ إلى أن وصلت به إلى غيبوبة، ما اضطرهم لإيداعه في العناية المشددة حتى يخضع لمراقبة طبية. وطلبت منهما التوقيع على بعض الموافقات، وأخبرتهم بأن المريض في العناية لا يحتاج لمرافق، وأن على الأم إخلاء غرفة الإقامة.

خرجت أمل برفقة زوجها بعد أن حمدا الله على كل حال، ولم تنسَ أخذ لعب ومتعلقات عمر على أمل أن يصحو بأقرب وقت ويسأل عنها. وكان من بينها كرة صوف صنعتها له جدته قبل سفره بقليل، ولأنه لم يكن يستطيع اللعب بها أصر أن يأخذها معه، وبعد أن تحسنت مناعته قليلاً استطاع اللعب فيها.

وها نحن نعود مع أحمد وأمل إلى مشهد البداية وهما في طريق الخروج،

يتساءلان: (ماذا بعد؟) ويفكران في خياراتهما. فقد نفذت مدة إقامة الأم، وهي بحاجة لتجديد قد لا تحصل عليه، لأن المريض في هذه الحالة لا يحتاج لمرافق. وهي لا تستطيع تخيل العودة إلى سورية بينما عمر يغط في غيبوبته.

وتهز رأسها لتطرد هذه الفكرة من عقلها، بينما أحمد ينتظر ماذا يمكن أن يحصل مع أمل في أوراقها، لأنه هو أيضاً لا يستطيع الإقامة ما شاء أن يقيم، والتصريح الذي حصل عليه من أهم شروطه أن يدخل ويخرج عدد مرات معينة في كل شهر حتى يستطيع المحافظة عليه.

مرت أيام، وحالة عمر الصغير على ما هي عليه، دون أن تحصل أمل على تمديد إذن المرافق، ودون أن يقرّر أحمد موعد عودته الاضطرارية إلى سورية ليثبت ذلك في دفاتر المعبر.

ولكنهما، برغم هذا الظرف الصعب، ما زالا يثقان بأن الألطاف الإلهية لن تتركهم، لذلك يحبس كل منهما دموعه أمام الآخر حتى لا يتسرب اليأس لقلبه.

وظلا يحلمان بأن يصحو عمر من الغيبوبة ويتابع العلاج، وأن يعودا به إلى القرية، ويلعب مع نور وإيمان المنتظرتين بلهفة، تعبران عنها في كل اتصال بما يتناسب مع طفولتهما الغضة. وترافق أحمد وأمل في ذلك كلّه دعوات وتمنيات الأهل والأحباب، بما فيهم توبا الممرضة التركية التي صارت صديقةً لأمل.

لا تكسروا قلمي

يدخل راشد إلى مبنى الهلال الأحمر على ثلاث، قدم واحدة وعكازين من تحت الكتف، ويخطو مسرعاً نحو صالة الانتظار، بعد أن وصله اتصال هاتفي بأن له مقابلة اليوم مع لجنة القبول بمفاضلة ذوي الإعاقة، والتي تعفي الطالب من القسط السنوي وتقدم له راتباً شهرياً يكفي احتياجاته الأساسية.

وأثناء انتظار دوره في مقابلة اللجنة مرّ أمامه شريط الذكريات القاسية بأحداثه التي وصلت به إلى هنا.

ينحدر راشد من جبل الأكراد في ريف اللاذقية حيث يعيش الناس في هدوء وأمان، أمانٌ بسبب نظام المجتمع الذي يقوم على معرفة الناس ببعضهم ما يجعل السرقة والنهب وحوادث الاعتداء والنصب قليلة، وينطبق هذا على الكثير من المناطق في سورية، وحدها الفروع الأمنية هي مَن يروّع الآمنين وبين الحين والآخر يفتعلون مشكلة يحصلون من خلالها على مبالغ مالية هائلة من كل الأطراف، لأن الناس كانت على استعداد أن تبيع حتى ثيابها حتى تبتعد عن الأمن بكل تدخلاته السيئة، والظلم الذي يتعرض له الشخص بمجرد أي تعامل بسيط معهم، ورغم كل ذلك لا يكاد ينجو أحدٌ من شرهم فهم يتدخلون في كل شيء.

وعندما نقول كل شيء فالمقصود هنا حرفيّة الكلام، فما إن يفكر شخصٌ ما في عمل بسيط أو مشروع كبير يعتاش منه، حتى تبدأ سلسلة الموافقات الأمنية بشكل رسمي أو غير رسمي يكلف الناس تكاليف إضافية، صاروا فيما بعد يضعونها في حسبانهم قبل أن يخططوا لأي عمل، بل وحتى مَن يسعى لوظيفة حكومية، يضطر لدفع المال مقابلها مهما كانت شهاداته أو خبراته.

ويتذكر راشد جيداً كيف تعب قريبه وكم دفع من المال حتى يحصل على وظيفة، وبعد أن تم التوقيع وذهب إلى المؤسسة اكتشف أن العقد وهمي، وأنه تعرض لعملية نصب كبيرة، حاول أن يستعيد المال الذي دفعه ولكن دون جدوى، ولأنه تعرض لتهديد مباشر، منعه أبواه من السعي لاستعادة المال خوفاً عليه.

كل هذه الأسباب مجتمعةً جعلت الأهالي ينضمّون للثورة منذ بدايتها، وكان أن تعرضت المنطقة لحملات أمنية وحشية لم تكتفِ بالاعتقالات، بل عملت على الإضرار بأرزاق الناس، لأجل ألا يفكروا بالاستمرار ويتخلوا عن حلمهم في التغيير.

ولا ينسى راشد يوم حرقوا مجموعة من الدكاكين في السوق الرئيسي، ولم يحرقوا القسم الآخر بهدف زرع التفرقة وبث الشكوك بارتباطات أمنية لبعض أصحاب المحال غير المتضررة.

حوادث كثيرة ومواقف مرّت صعبة، مرت على ذاكرة قلبه، ذاك القلب الغضّ الذي تألم كثيراً وهو ما يزال في مقتبل العمر. تألّم لدرجة أنه صار يتجنب الذكريات ويتهرب منها، لأنه لا يحب أن يظل أسير الماضي، وإنما صار يحاول أن يرسم لنفسه مستقبلاً يساعد فيه على تحصيل حقوق

الناس، ليس من بوابة الانتقام ولا معاداة الآخرين، بل من باب المشاركة الحقيقية في بناء وطن تقطعت أوصاله وصارت كل حارة فيه تحت راية، وهذا يوجع راشد أكثر من آلامه الشخصية، وما أكثرها!

ويرى الشاب بعين الخيال نفسه وهو ينهي دراسة الحقوق- حلمه القديم الجديد- ويغزو المحاكم الدولية والمحلية، مدافعاً عن ضحايا آلة القمع الوحشية التي كان من بين ضحاياها. أجل، راشد يعتبر نفسه ضحية مزدوجة للاعتقال والقصف، ورغماً عنه، هاجمته ذكرياته الشخصية.

ذات يوم من أيام الثورة الأولى، اعتقلته القوى الأمنية إثر مشاركته في مظاهرة سلمية كانت تدعو أبناء الجيش والأمن للانضمام للشعب، كل الشعب، متجاوزاً المناطقية والطائفية والعشائرية وكل دواعي التقسيم.

وفي سيارة الأمن التي اقتادته إلى التحقيق، ضربوه بقسوة حتى فقد وعيه ولم يستيقظ إلا وهو في غرفة التحقيق، وساقه تنزف بشدة. وبعد تحقيق شكلي، ذهبوا به إلى القاضي الذي وقع أمر الإفراج عنه.

كل هذه الإجراءات وساقه تنزف، رآه أحد معارف العائلة وهو بالكاد يستطيع المشي، فساعده بالوصول إلى أقرب سيارة أجرة، وذهب به إلى البيت، ليراه أهله بهذه الحالة، ويستنجدوا بجارهم الممرض لكي يعمل على قطع النزيف. وعندما رأى ساقه، نصحهم أن يأخذوه إلى المستشفى، لأن الإسعافات الأولية في البيت لن تجدي نفعاً بسب عمق الجرح. يتردد الأب بأخذه للمستشفى، خوفاً عليه من إعادة اعتقاله مرة أخرى، ولكن يبدو أنه لا مجال للتردد، فالنزيف لم يتوقف، وبالفعل أخذه، وهناك تعرض الأب لأسئلة كثيرة، اضطر معها للكذب حتى لا يثير الشكوك حول ولده. خيّطوا الجرح على عجل، وعاد بعدها راشد بصحبة والده إلى البيت، بعد أن أحضروا الأدوية معهم. لقد تحسن الجرح وبدأ يلتئم، ولكن يبدو أن مشية راشد لم تعد كما كانت قبل الإصابة.

للأسف صار راشد يميل بمشيته، وعندما أخذوا الصور الشعاعية، عرفوا أن جزءاً من عظم الساق قد تضرر بسبب تأخر إسعافه، لقد تقبل الأمر وتعايش معه بسرعة لفتت أنظار الجميع، وعاد لما يشبه حياته الطبيعية.

ومع الأيام، صار راشد يتعب من الحركة، ويمشي ببطء ملحوظ. وعلى المسار الآخر، تطورت الأمور في المنطقة بتسارع، وبدأت المدفعية تضرب الأحياء السكنية، وصار الناس يخرجون من بيوتهم في النهار إلى الأحراش

القريبة، ويعودون مع الظلام. وكان الأمر صعباً على راشد بسبب بطء حركته. وهنا، هنا فقط بدأت تتأزم نفسية راشد، الذي صار يلاحظ أنه السبب في تعطيل حركة العائلة، فقرر البقاء في الأحراش حتى في الليل مع مجموعة من الشباب، إذ إن المدنيين يأتون في ساعات النهار فقط، وربما يضطرون للخروج سريعاً وبأوقات متفاوتة، على حسب ضرب المدفعية. ورغم رفض والديه، أصرّ على ذلك.

وفي إحدى الصباحات الشتوية، شعرت أخته بشيء من البرد، رغم أن الأم احتاطت بكل ما تستطيع لوسائل التدفئة، ولكن يبدو أنها لم تكن كافية. فما كان من راشد إلا أن عاد للبيت بسرعة، لكي يحضر المزيد من الأغطية، وفي طريق عودته بدأت المدفعية تلقي قنابلها العشوائية، ولأنه لم يكن يتحرك بشكل طبيعي، لم يفلح في الهروب من القصف، فأصيب إصابة جديدة في ساقه نفسها، ومرة أخرى وبسبب استمرار القصف لساعات، تأخر إسعافه، وعند نجاح الأهالي في إسعافه مع مصابين آخرين، كانت ساقه في حالة سيئة، ما اضطر الأطباء في قرار سريع لبترها.

محطة أخرى في حياة راشد بدأت بذلك اليوم، وصارت معها العُكّازتان رفيقه الذي لا يتركه، بل وصار راشد يشاركهما همومه وأوجاعه، ومعها أحلامه في متابعة الدراسة.

ومع اشتداد القصف، الذي صار قصف الطيران أكثر خطورة من قصف المدفعية، ومن الصعب تجنبه، تقرر العائلة الخروج إلى تركيا، مثلها مثل الكثيرين، ويتم ذلك بعد تجاوز الكثير من العقبات. وبعد الوصول، تجلس الأسرة لكي تتفق على طريقة تدبير شؤون حياتها. وهنا، يشعر راشد بوجع لم يشعر به حتى عند إصابتيه الاثنتين والنزيف الحاد، لأن هذا الموقف بالنسبة له أصعب بكثير.

ويستطيع راشد تعلم اللغة التركية من خلال دورات الإنترنت، وساعده هذا في تحصيل عمل افتراضي، نجح في تحسين الأحوال المادية للأسرة بعض الشيء.

يعاني راشد من صعوبات كثيرة، منها مثلاً بأنه سكن مع أهله في بيت أرضي عند وصولهم، مراعاةً لحالته الصحية التي تمنعه من صعود السلالم. وعندما أراد البيت صاحبه، وبحثت الأسرة عن بيت أرضي آخر، لم تفلح في ذلك، لأن الكثير من أصحاب البيوت صاروا يرفضون تأجير السوريين. وعندما يجدون البيت المناسب يكون عنوانه مغلقاً للسوريين، واضطروا بعد ذلك

للسكن في بيت بطابق رابع، ما جعل خروج راشد من البيت أكثر صعوبة. وفي مركز الشباب، حصل على عضوية في نادي ذوي الإعاقة، فرح بها لأنه في الأساس يحب الرياضة، بل وكان يمارس بعض ألعاب القوى البسيطة، وتأمل أن يتيح له النادي تطوير مهاراته فيها، ولكنه لم ينسجم مع أعضاء النادي الذين لم يرحبوا به بينهم، وكانوا يتصرفون معه بشكل غير لائق، تحمل قليلاً، ولكنه ترك النادي فيما بعد.

يستفيد راشد من الخدمات الصحية المجانية التي تكفلها بطاقة الحماية المؤقتة التي يحملها، ولكن بدأ منحنى هذه الخدمات بالتراجع بذرائع مختلفة، فصار يضطر لشراء العكّازات التي تحتاج إلى تبديل كل عدة أشهر، بعد أن فشل في الحصول عليها مجاناً من نادي ذوي الإعاقة في مركز الشباب.

وهذا كله استطاع تجاوزه والتعايش معه، ولكن أكثر ما كان يؤلمه هو بداية ضياع حلمه في الدراسة، لأن والده لم يعد يستطيع العمل وما عاد باستطاعته تحمل الأعباء المالية للدراسة.

وهنا شرع بمهمة البحث عن المنح الدراسية، وصار يراسل كل الهيئات والجمعيات الطلابية والمؤسسات المعنية بمساعدة الطلاب وبمساعدة مصابي الحرب.

هذا البحث استزف الكثير من الوقت والجهد وحرق الأعصاب، لأنه لطالما تلقّى وعوداً لم تُنفّذ، وتعرّض للاستغلال من ناحية أنه مصاب حرب، كان هذا أكثر ما أوجعه.

وكان والداه يراقبانه وهم في حالة شعورٍ بالعجز لم يشعرا بها من قبل، لكم تمنى والده أن يكونوا في بلادهم، ويستطيعوا بيع قطعة أرض أو جزءٍ من إرثٍ له، يقدّمه لولده الذي يتمنى متابعة دراسته.

أما الأم فكانت أمنيتها مختلفةً، فقد تمنت أن تراه يمشي دون عكازين، وعندها يخف قهرها عليه، كانت ترى أقرانه من أهلهم وأقاربهم يعيشون وهم يحلمون أحلاماً مختلفة تماماً عن حلم راشد الذي كان شفه بالدراسة يسيطر عليه، وكانت تلومه باستمرار وتقول له بأن الدراسة ليست نهاية العالم، ولكن دون جدوى.

وها هو يجلس منتظراً دوره في مقابلة بهدف الحصول على منحة دراسية، والهلال الأحمر التركي هو وسيط فيها.

وكان في قرارة نفسه قد عقد العزم حتى إن لم يفلح بالحصول على هذه المنحة أن يستمر في السعي حتى الوصول إلى هدفه.

يستفيق راشد من شروده الطويل على صوت يناديه لأن الدور وصل عنده.

وبدورنا، نتركه ليقابل اللجنة، ونتمنى له ولكل مصابي الحرب أن يحصلوا على ما يحلمون.

المال والبنون

تخرج نسرين من مكتب التحويل، وهي تشعر براحة كبيرة لأنها استطاعت إرسال مبلغ مالي لأمها في سورية، أمها التي تعاني من فشل كلوي وتحتاج إلى الغسيل لأكثر من مرة في الأسبوع.

تعود نسرين إلى الكامب الذي ما زالت تقيم فيه لأنها وصلت إلى أوربا منذ مدة قريبة، وتصادف عند الباب جارتها التي سلّمت عليها بسرعة.

وما إن دخلت إلى غرفتها حتى رنّ هاتفها، إنه رقم أمها التي أخبرتها بأن الحوالة وصلت، وكل الكلام دعوات لم تنتهِ حتى بانتهاء الاتصال، هذه الدعوات التي تؤمن نسرين بأنها بعد توفيق الله السبب الرئيسي في تيسير أمورها. تنظر لأولادها الذين تركتهم نائمين، وإذ تنظر في أعينهم تتذكر كل الحكاية، أجل كل الحكاية.

كانت نسرين تعيش في بيتها ذي المساحة الواسعة والفخامة الواضحة، فزوجها تاجر ابن تاجر والثراء عندهم بالوراثة، لكنها لم تكن سعيدة في الحقيقة، فقد كانت تحلم أن تكمل دراستها، إلا أن جمالها اللافت حال دون ذلك، لأنها لفتت نظر أم خالد التي خطبتها لابنها وهي في الثانوية، وافق أهلها بكل حماس لأنه من الصعب على أسرة متوسطة الحال أو ربما أقل من ذلك أن ترفض مثل هذا الزواج، خاصة في مجتمع بسيط لا تملك فيه الفتاة لا حق التعليم ولا حق اختيار شريك حياتها.

تم الزواج بمظاهر باذخة، مهر كبير وحفل ضخم ظل حديث المدينة لأيام، انتقلت بعدها لتعيش في بيت حسدتها عليه كل قريباتها.

وتمر الأيام وتتناسى نسرين شغف الدراسة وتنشغل بالزواج والأمومة، ورغم الانشغال ومحاولة نسيان حلمها فقد ظلت بين وقت وآخر تتخيل نفسها وهي مهندسة تغدو وتروح في عملها مثل نحلة نشيطة، أو معلمة تتجول بين مقاعد التلاميذ وتصحّح دفاترهم.

عقدت نسرين العزم أن تعوّض ذلك مع أولادها وتربيهم على حب العلم، وكانت تكثر الجدال مع زوجها بهذا الخصوص. زوجها الذي كان يحمل نفس فكر أهله بأن المال هو المعيار الذي يتم تقييم الإنسان من خلاله وهو السبب الوحيد للسعادة.

وبمرور الأيام يكبر الأولاد قليلاً ويدخلون المدرسة، وكانوا- تأثراً بأمهم- يحبون المدرسة. وكانت نسرين تتابع كل تفاصيل دراستهم، وصل بها الأمر ذات مرة أن بكت بدموع حارة لأن ابنها حصل على الدرجة الثانية في الامتحانات النصفية.

ومع التحركات العسكرية التي شملت غالب الجغرافية السورية، بدأت أحوال الأسرة المادية بالتراجع، وبدأت معها نفسية زوجها تتأزم. وهذا طبيعي، لأنه يؤمن بأن المال هو السبب الوحيد للسعادة كما تعرف نسرين، لذلك كانت تحاول أن تواسيه بكل ما أوتيت من مهارات الحياة، تلك المهارات التي بدأت تنفذ مع الصعوبات المتتابعة، صعوبات من كل الجهات، انقطاع شبه دائم للخدمات الأساسية من ماء وكهرباء، وانعدام للأمن، فقد تعرض مصنع زوجها للسرقة أكثر من مرة، وهذا ضاعف سوء الوضع المادي للعائلة، التي بدأت تبيع الماكينات بأقل ثمن لكي تستطيع تدبر أمور معيشتها.

وكانت من أكثر الأشياء التي تتنبه لها نسرين أن زوجها يكره الظلام، ويتقوقع على نفسه، ويصبح مثل طفل تائه ينظر نظرات شاردة. فكانت حريصة أن تشغل له الأنوار كلها في البيت، والأمر في الحقيقة ليس سهلاً على الإطلاق، لأن نسرين كانت تحتال لتفعل ذلك. فمرةً كانت تعتمد على المولّدة الكهربائية، ومرة على بطارية كانت إنارتها باهتة، ولكنها أفضل من الظلام بحال من الأحوال.

تفرقت العائلة الكبيرة، كلٌ تحت نجمة، ما جعل نسرين المسؤولة الوحيدة عن زوجها وأطفالها، بما في ذلك إدارة أملاك زوجها، أو بالأصح ما تبقّى من أملاك زوجها.

كانت تحاول أن تكون متماسكة أمام طفليها، أما زوجها فقد بدأ يفقد إدراك ما حوله شيئاً فشيئاً. استطاعت تدبر مبلغ من المال لكي تعرضه على الطبيب، الذي أكد لها أن لا مشاكل عضوية عنده.

ظلت تصلي الاستخارة ليالي كثيرة، استشارت مّن تعتقد أنهم أهلٌ للاستشارة، وعملاً بالمثل الذي يقول: (شاور الأكبر والأصغر منك وارجع لرأيك)، استعانت بالله وشرعت بتنفيذ ما قرّرت.

لقد باعت كل ما يملك زوجها، الذي لم يوافق ولم يعارض، لأنه لم يعد يأبه لشيء، وكان الصمت جوابه الوحيد على كل ما تسأله عنه.

استمرت عملية البيع مدة ليست بالهينة، لأن الناس لم تعد راغبة بشراء

عقارات وأملاك، هذا من جهة ومن جهة أخرى ليس عند الناس سيولة كافية، ونسرين كان شرطها للبيع أن يكون نقداً.

وبعد أن تمت المهمة وجمعت الأموال، أقامت مع زوجها وأطفالها في بيت أهلها ريثما يأتي الموعد المتفق عليه مع المهرّب الذي يأخذهم إلى تركيا، أهلها لم يكونوا مقتنعين بما تفعل، لكن إصرارها أسكت الجميع (أهلها وأهل زوجها المتفرقين).

وعندما حان الموعد خرجت نسرين بزوجها وأطفالها إلى الحدود، وكان اتفاقها مع المهرّب أن يدخلوا في سيارة، ولكنه حنث بالاتفاق، وأخبرهم بأن الظروف تغيرت وأنهم يجب أن يمشوا مسافة طويلة. في هذه اللحظات، بكت نسرين ولأول مرة منذ بداية تحملها لمسؤولية الأسرة، فكيف لها أن تمشي بأطفال صغار وأبيهم الذاهل عن كل ما حوله؟

حملت الصغيرة على كتفها، وأمسكت الطفل الأكبر بيد وزوجها باليد الأخرى، ولا تنسى كيف ساعدها الجميع، وخاصة عند الصعود من الوادي.

وبينما كانت في الطريق، شعرت بأنها فقدت الحزام الذي لفّته حول بطنها، وكان فيه الأموال التي جمعتها وحوّلتها إلى العملة الصعبة، فتجمّدت في مكانها للحظة ولم تعرف كيف تتصرف؟ صارت الأفكار تختلط في رأسها، لم تجد حلاً، فمن الصعب البحث عنها في هذا الظلام، بالإضافة أن التأخر يعرضها للخطر، وأيضاً من الصعب الاستمرار، فكيف لها أن تتدبر شؤون الرحلة من دون المال؟

(تتذكر هنا مناقشاتها مع زوجها الذي كان يحاول إقناعها بأن المال هو الأساس)

تضحك في سرها، وتقرر الاستمرار ليس لأنها مقتنعة بذلك، ولكن لأن ليس لديها خيارات أخرى. كانت قد وضعت في ذلك الحزام جزءاً من المال وليس كلّه، وهذا ما خفّف الأمر عليها.

تصل نسرين بأسرتها إلى تركيا وقد كانت تمنّي نفسها بحياة مستقرة، وبمجرد وصولها تشرع في إنشاء مشروع صغير بما تبقّى لها من مال، وتواجهها صعوبات كثيرة مالية وإدارية تتعلق بعدم وضوح صفتها في تركيا (هل هي لاجئة محمية بلوائح قانونية محددة، أم هي مستثمرة لها كذلك حقوق واضحة؟). دخلت بعدها بدوامة استنزفت كل وقتها، ما جعلها تهمل العناية بزوجها ودراسة أطفالها الذين بالكاد استطاعت أن تُدخلهم المدرسة،

لأنها لم تفلح باستصدار بطاقات الحماية المؤقتة، رغم أنها حاولت ذلك، وتنقلت بين أكثر من ولاية، وهذا الأمر أوقعها في حيرة، دراسة أطفالها في ولاية ومتابعة رزقهم في ولاية أخرى.

كانت نسرين تضطر إلى الذهاب والإياب بين الولايتين في يوم واحد، لأنها لم تفلح لا في نقل مدارس أطفالها، ولا في نقل المشروع الذي يعتاشون منه. وفي إحدى المرات أوقفتها الشرطة لأنها لم تستصدر إذن سفر، رغم أنها أخبرتهم بأنها حاولت كثيراً دون أن تفلح، ولم يفرجوا عنها إلا بعد أيام عاشتها على أعصابها، لأنها تعرف تماماً بأن زوجها وأطفالها لا يستطيعون حتى إطعام نفسهم بدونها.

عادت السيدة المتعبة إلى بيتها متلهفة، لتجد زوجها منكمشاً في زاوية الغرفة، يحدّق بعينين شاردتين. وأخبرها الأطفال بأنه لم يأكل شيئاً، بل لم يتحرك من مكانه، وما إن رآها حتى بدأ بالبكاء المكتوم، ونجحت بعد فترة ليست بالهينة، أن تعيده إلى السرير وتطعمه، وما إن نام زوجها التفتت إلى الأطفال، وبعد أن أطعمتهم وشعروا بالهدوء والسكينة، ناموا بدورهم إلى جانب أبيهم.

وهنا، عادت نسرين إلى نفسها وصارت تستعرض خياراتها والحلول المتاحة أمامها، وتضرب أخماساً بأسداس، لقد ضاقت الحياة بها، ولم تعد تقوى على كل هذه الأعباء وحدها، فصار من الضروري أن تجد مخرجاً لكل ما تعاني منه، خاصةً بعد أن أخبرتها المدرسة أنها بحاجة لتجديد أوراق أولادها، بينما دائرة الهجرة رفضت أن تعطيها هذه الأوراق، لأنها كانت قد منحتها لها من قبل، وليس في قانونهم إذن بتكرارها وهذا الأسبوع الثاني الذي لم يذهبوا به إلى المدرسة، رغم أنها استنجدت بمحامية وعدتها بالمساعدة لكنها لم تفلح، وبجمعية أهلية وكذلك لم تفلح في إعادة الأطفال للمدرسة .

بعد التفكير قرّرت السفر بعائلتها إلى أوربا، وصارت تسأل عن الطريق والتكاليف، وعندما حسمت أمرها وبدأت ببيع المشروع، عادت لدوامة السفر بين الولايتين لإتمام عملية البيع، وكانت تغدو وتروح على أعصابها. وما إن أتمت البيع، حتى ذهبت بأسرتها إلى الحدود، عانت كثيراً حتى استطاعت الوصول.

وصلت إلى أوروبا بحِملها الثقيل، زوجٌ يكاد لا يدرك ما حوله، وأطفال انقطعوا عن الدراسة فترات كثيرة في سورية، بسبب الوضع الأمني أو بالأصح الوضع اللاأمني، وفي تركيا بسبب عدم حصولهم على أوراق رسمية، ما جعلهم في

حالة من التراجع، وكان رفع مستواهم التعليمي أحد أهم أهدافها عندما وصلت. ومع الحِمل، حلم لا بل أحلامٌ كبيرة بحجم مسؤولياتها.

بدأت تستفسر كيف من الممكن أن تساعد زوجها للخروج من أزمته النفسية، وكيف تستطيع الوصول بأطفالها إلى مقاعد الدراسة من جديد، لترى فيهم نفسها، وتفي بوعدها لنفسها بأن تعوض بهم حرمانها من التعليم.

وشيئاً فشيئاً، بدأت تقف بقدمين ثابتتين على أرض صلبة. فقد بنت علاقات مع جيرانها المهاجرين من سورية وغيرها، وترافق زوجها مرتين في الأسبوع إلى جلسات العلاج، وتتابع تعلم اللغة لكي تستطيع مساعدة أطفالها في دراستهم.

أجل، أطفالها الذين يدرسون الآن في مركز تعليمي حتى يستطيعوا تعويض ما فاتهم، ويلتحقوا بالصفوف المناسبة لأعمارهم. وبين هذا وذاك، تتواصل مع أهلها وأهل زوجها باستمرار، تسأل عن أحوالهم، وتقطع قلبها حزناً عندما علمت بمرض والدتها، فحاولت المساعدة بمبالغ مالية قليلة ومتقطعة، لكنها أفضل من لا شيء.

أدركت بعد كل ذلك أن المال والبنين زينة، وأن الزينة لا تكون مناسبة إلا إن وضعتها في مكانها المناسب، واستثمرتها بالشكل الصحيح. وهذا ما تحاوله نسرين، تلك المرأة التي خرجت من بيتها الذي كان مغلقاً عليها إلى الدنيا الكبيرة بحلوها ومرّها.

خالد مع خالد

هذا شاطئ البحر المتوسط في مدينة تركية على حدود اليونان، وهي إحدى بوابات الهجرة إلى أوربا. يقصدها الكثيرون بحثاً عن رحلة بحرية تصل بهم إلى شواطئ القارة العجوز، حلم الشعوب إما الفقيرة، وإما التي تعرضت لآلة عنف لم تعد قادرة على احتمالها. فيخرج الناس من هذه أو تلك بحثاً عن خيار أفضل للحياة، إن لم يكن لهم فلأولادهم.

وفي فندق صغير متواضع في أحد أطراف المدينة، تنزل عائلات سورية وعائلات من جنسيات أخرى، لأيام قد تطول وقد تقصر، على حسب أمور كثيرة، تتعلق أحياناً بظروف النزلاء، وأحياناً أخرى بوضع الطريق ودوريات شرطة الحدود، وحدثت فيها الكثير من عمليات النصب والاحتيال من قبل المهرّبين تجار البشر.

وفي الطابق العلوي وفي غرفتين متقابلتين، تنزل عائلتان من سورية وصلتا في اليوم نفسه. فهذا خالد الصغير مع أبويه وإخوته القادمين من أقصى شمال شرق، وهذا خالد الصغير مع أبويه وإخوته القادمين من أقصى جنوب غرب، بمفارقة جميلة رسمتها الأقدار.

ومع اليوم الأول، ودون أن يعي الكبار، انسجم خالد وخالد، ومَن يراهما يظنّ أنهما يعرفان بعضهما منذ الطفولة المبكرة، بل المبكرة جداً. دائماً الأطفال هم الأقدر على كسر الحواجز، لأنهم لا يأبهون بتخوفاتنا- نحن الكبار- والتي تعيق تواصلنا. وبسبب الطفلين صار الأهل أصدقاء، ويوماً بعد آخر وصلوا إلى حالة من الارتياح والثقة، جعلتهم يتفقون أن يكملوا الرحلة معاً. وكان من أول ما توافق عليه الكبار أن خالد وخالد هما صاحبا الفضل الحقيقي في تكوين هذه المجموعة من الطيور المهاجرة.

وفي سهرة على شاطئ البحر، تحكي هندرين لصديقتها الجديدة وفاء حكايتها التي وصلت إلى هذه المحطة. فهي تنحدر من مدينة القامشلي، خسرت شقيقها خالد في عام ٢٠٠٤ في المجزرة التي ارتكبتها فرقة من الجيش بعد مباراة كرة قدم وافتعال أحداث شغب، تبيّن لهم فيما بعد أنها قد دُبّرت في ليل، وهي متأكّدة من ذلك. ولا تنسى الجنازات الجماعية

والحداد الذي لفّ المدينة، وفي العزاء الذي وفد إليه كثيرٌ من أبناء البلد، لا وبل من خارجها، تعرّفت على صديقه أحمد الذي حرص أن يقدم العزاء لوالدتها، وعندما اقترب للسلام عليها، رآها ورأته. وبعد انتظار فترة -واحتراماً منه لحداد الأسرة- تقدم لخطبتها وتزوجا، واتفقا أن يسميا مولودهما الأول خالد ليحمل اسم خاله الشهيد.

تنزل دموعها، وتخبر صديقتها بأنها كلما نادت ولدها تذكرت أخاها وترحمت عليه، وهي تحمد الله على ذلك لأن من شأنه ألا تنسى شهيدها. أجل، شهيدها هكذا كانت تعتبره، ومع قيام الثورة، تتراجع الأوضاع الأمنية والخدمية ويُعتقل زوجها بسبب مشاركته في المظاهرات السلمية. التي تتذكر جيداً كيف كان يسافر إلى عامودا ليشارك الحشود، ويرجع بعدها مشحوناً بطاقة هائلة، ويظل طوال اليوم يردد هتافات المظاهرة.

وكيف أخذ معه خالد في إحدى الجُمَع وتصورا معاً، وكانت الصورة محفوظةً في هاتفها، وتخبر وفاء كيف احتالت لتخبئها في الهاتف لأنها تنتظر اليوم الذي يكبر فيه خالد وتُريها له. وبعد اعتقال زوجها لأشهر، وخروجه بحالة نفسية متعبة وإصابة في عينه اليمنى جعلته لا يرى فيها إلا خيالات غير واضحة، قررا الخروج من سورية نحو تركيا. وكذلك لأن فرع الأمن الذي أفرج عنه أعطاه ورقة تلزمه بمراجعة دورية، لذلك شرعا وبمساعدة الأهل بالبحث عن طرق توصلهم دون المرور بحواجز أمنية.

وبعد عدة محاولات، نجحت الأسرة الصغيرة في ذلك ووصلت إلى تركيا لتبدأ بمرحلة جديدة فيها الكثير من المصاعب. من بينها أن طفلةً وُلدت في طريق الدخول، ووصلوا بها بعمر ثلاثة أيام، ولأنها لم تكن مسجلة في الأوراق التي أحضروها معهم من سورية لم ينجحوا في استصدار ورقة رقم عائلي لها يجمعها معهم. رغم محاولات كثيرة ودعوى قضائية كلفتهم مبلغاً مالياً لم يستطيعوا تحمله إلا بعد مساعدة أخوة أحمد المقيم في ألمانيا.

وكان هذا السبب الذي حرمهم من الحصول على فرصة إعادة التوطين، التي تقدمها الأمم المتحدة للحالات الإنسانية بما فيها الناجين من الاعتقال ممّن تعرضوا لتعنيف. وكانت الشروط تنطبق على الأسرة، لكن ولأنهم لم يستطيعوا إدراج المولودة في الملف، صرفوا نظر عن الأمر كلّه. ولجؤوا لفكرة الهجرة عبر البحر لأنهم لم يستطيعوا استصدار أذونات عمل، وصارت الظروف لا تسمح بالعمل بدونه تحت خطر الترحيل.

وهنا احتارت الأسرة كيف تتدبّر أمورها، فليس من الطبيعي أن يعيشوا

على مساعدات أهلهم في أوروبا، والذين هم بالأساس ليسوا بوضع مالي مرتاح بسبب كثرة التزاماتهم مع الأهل، وما إن تدبّروا المال بعد أن نجحت هندرين في تأمين المبلغ من إرثها الذي أخذته، بعد أن كانت تريد تركه لإخوتها، نزولاً عند عادات المنطقة عندهم التي لا تعطي البنات حصتهنّ من الإرث منذ أجيال. ولكن اضطرتها الظروف للأسف أن تأخذه، ولم يمانع إخوتها في ذلك. وهي تشعر بالامتنان لهم رغم أن هذا حقها، وها هي تنتظر بقرب البحر أن تهاجر إلى أوربا لعلها تستطيع أن تحصل على حياة أفضل بعد أن ضاقت بهم السبل في تركيا.

تسكت بعدها هندرين وتنظر إلى وفاء وكأنها تسألها عن رأيها بحكايتها، وتبادر وفاء بالتعليق بأن صديقتها الجديدة قوية. وإنها تشعر بالسعادة رغم أكوام الوجع، واتفقتا على الذهاب إلى النوم، وفي الغد تروي وفاء حكايتها إلا إذا تيسر ركوبهم بالبحر فأنهما ستؤجلان ذلك.

وفي الصباح عادت العائلتان للاجتماع من جديد، وكانوا لا يفعلون شيئاً إلا الانتظار، لأن رحلتهم ومثيلاتها غالباً ما تكون في الليل. وباقتراب المساء، تبين لهم أنه يتوجب عليهم الانتظار يوماً آخر، ومع البدر الذي يتربع وسط السماء وينعكس على سطح الماء، اجتمعوا من جديد، وعلى اتفاق الأمس كان على وفاء أن تروي حكايتها.

هي وزوجها أبناء الزبداني تلك البلدة الجميلة التي تشتهر بتفاحها الذي يعرفه كلّ السوريين بنكهته المميزة. وتذكر جيداً كيف كان الطريق إلى دمشق طويلاً وكيف أنها كانت مضطرة أن تذهب يومين في الأسبوع إلى المحاضرات العملية فقط، وتتابع الدراسة في البيت عن طريق صديقاتها، لأن الحالة المادية للأسرة لم تكن تسمح لها بالإقامة في دمشق ولا بالذهاب كل يوم.

ورغم ذلك، لم تتأخر في الدراسة وتخرجت وعملت في قرية بعيدة بعض الشيء، فكان العمل متعباً، ولكنها كانت راضية لأنها تحب التعليم، ولأنها تستطيع تقديم نصف الراتب لأهلها لعله يساعد في مصاريف العائلة الكبيرة. وتمضي بها الأيام حتى تتعرف على حسن، زميلها الذي يعمل في نفس المدرسة، ويتقدم لخطبتها.

ويحتاران في تدبير أمور زواجهما، لأن حسن أيضاً يساعد أهله بجزء كبير من راتبه، لذلك يقرران السكن في منزل مستَأجَر في القرية التي يعملان بها، وبالتالي يوفران تعب الطريق وكذلك جزءً من رواتبهما يستطيعان بها

مساعدة عائلتيهما. ومع قيام الثورة، تدهورت الأحوال الأمنية في الزبداني، وصار حسن يخاف من التنقل بين الزبداني والقرية التي يسكن بها، لأن الاعتقالات العشوائية كثرت، والسحب الاحتياطي للتجنيد صار يخيف الناس حتى الذين ليس عندهم مشاكل أمنية.

كل هذا كان كفيلاً بأن يغيّر حياة وفاء وحسن بشكل جذري، وكثيرين مثلهم. ودارت بهم دورة الثورة، مظاهرات، فشهداء فجنازات، فشهداء جُدُد، فحمل السلاح للدفاع عن النفس، فقصف المدفعية، فقصف الطيران، والنزوح من القرى والبلدات. وبعدها، إما الاستقرار في المناطق التي نزحوا إليها، أو اللجوء خارج البلاد.

وهذا ما استقر عليه رأي وفاء وحسن، لأنه مطلوب للاحتياط في جيش النظام، ولم يكن مستعداً للزج بنفسه في دوامة العنف ولا لقتل الأبرياء. وكان اللجوء إلى لبنان هو الأقرب لتفكير أهالي المنطقة، ولكن وفاء رفضت، لأنها لم تكن مطمئنةً للوضع الأمني في لبنان، ونصحت إخوتها وأقاربها عدم الذهاب إليها.

وقرّرت مع حسن السفر إلى تركيا، وبعد طريق طويلة ومحاولات امتدت لفترة من الزمن، نجحا بالدخول إلى تركيا برفقة أطفالهم، وهما يريدان العيش فيها لأنهما خافا من فكرة السفر إلى أوربا، لاعتقادهما بأنهما لن يستطيعا السيطرة على الأطفال وتربيتهم بالطريقة التي يرغبان بها.

ومع العيش في تركيا بدأت تتولّد أوجهٌ أخرى للمعاناة، منها المالية التي اضطرتهما للعمل في ورشة تصنيع أحذية بساعات طويلة وأجور زهيدة. وتخبر وفاء صديقتها هندرين بأنها لا تنسى اليوم الذي اشتعلت فيه النيران بالبيت، ولم يستطع الأطفال التصرف كما يجب لأنهم خافوا، ولولا العناية الإلهية وتدخل الجيران، لكانت وفاء قد خسرت أطفالها.

والفكرة في الأمر أنهما كانا مجبَرين أن يعملا حتى يتدبران أمور المعيشة، لذلك جعلا العمل بنظام التناوب، يعمل حسن في الليل، وهي في النهار، أو العكس. ووصلت بهما الظروف أنهما بالكاد يلتقيان يوم العطلة، وأحياناً لا يحصل ذلك إذا حصل أحدهما على ساعات عمل إضافية يسعى لها من أجل زيادة الدخل. وحصل أن مرضت طفلتهما، فاضطرت وفاء لترك العمل من أجل العناية بها ما ضاعف المشكلة، لأن الطفلة بحاجة إلى مصاريف علاج لا تغطي بطاقة الحماية المؤقتة إلا جزءً منها، والدخل تراجع إلى النصف بعد أن تركت هي العمل، وحاولت كثيراً العمل في البيت ولكن الوقت لا

يسمح، لأن الطفلة كانت تحتاج لمتابعة في فترة مرضها الأولى، وصارت الأسرة تقتصد في عدد وجبات الطعام وفي نوعها، لدرجة أنها خافت على الأطفال من فقر الدم وضعف المناعة بسبب قلة الغذاء.

وحاولت وفاء -والتي استلمت تدبير أمور الأسرة بعد أن تركت العمل، ولأن حسن لم يكن لديه من الوقت ما يكفي لعمل أي شيء، فقد صار يعمل ساعات أكثر على حساب صحته وساعات نومه- حاولت الحصول على تغطية لعلاج الطفلة من أكثر من جهة دون جدوى.

وتخنقها الدموع وهي تحكي لصديقتها كيف ماتت الطفلة لأنها لم تحصل على العلاج. وكيف وصلتها رسالة بمبلغ مالي من جمعية خيرية يغطي بعض تكاليف العلاج في اليوم الذي ماتت به الطفلة. وعلمت فيما بعد أن المبلغ كان يجب أن يصلها قبل ذلك بأكثر من شهر، ولكن ما أخّره هو الروتين، ما ضاعف حسرتها على الطفلة.

وعادت للعمل في الورشة مع زوجها، لعلها تخرج من دائرة الحزن قليلاً. وفي أحد الأيام تعرضت لإصابة في يدها اليمنى بإحدى آلات الورشة، ورفض صاحب العمل مساعدتها، وتبرّأ من عملها عنده، ولم يكتفِ بذلك، بل طرد زوجها ومعه عاملان احتجا على قراره الظالم وتخلّيه عن مسؤولياته تجاه وفاء.

ما جعلها لا تطيق البقاء في مكان خسرت فيه عافيتها ظلماً، وطفلتها التي حُرمت من العلاج بسبب بطء في الإجراءات غير مبرر، وتنجح بإقناع حسن بالهجرة وبأنهما سوف يستطيعان تدبر طريقة تعامل مع أطفالهما هناك، لأن هذا كان أكثر ما يخيفهم.

وتسكت وفاء وتحاول هندرين التعليق، إلا أن الدموع تخنقها وتتعانقان عناق وجع مشترك يجمع أم خالد مع أم خالد، وتذهبان للنوم في انتظار يوم جديد قد يكون اليوم الأخير للعائلتين في هذه البلاد.

مشاعر لا تعرف النسيان

تعيش حنان في تركيا منذ سنوات، وتحاول أن تكون متوازنة وطبيعية، رغم كومة الذكريات الموجعة التي تحملها على كتفيها منذ الطفولة، ورغم أن الإنسان بطبعه ينسى وأن حنان حاولت كثيراً النسيان أو ربما التناسي، إلا أنها ودون أن تشعر، تربط بين صعوبات اللجوء التي لا تنتهي وذكرياتها القديمة، لدرجة أنها ذهبت إلى طبيب نفسي لتتعافى من هذه المشكلة التي قد لا تصل إلى درجة المرض النفسي، ولكنها بالتأكيد ليست بالهينة.

وفي جلسات العلاج، باحت حنان بكل ما في داخلها للطبيبة، وتشاء الصدف أن تكون الطبيبة- السورية طبعاً لأن حنان لا تتكلم التركية- من

نفس مدينتها. إنها لا تعي تماماً ما تعيه حنان، ولكنها سمعت من أهلها حكاياتٍ متناثرةً، متناثرةٌ لأنّ الناس لم تكن تحكي بسبب الخوف، بل والخوف الشديد، ولهم العذر- كل العذر- في ذلك من وجهة نظر تلك الطبيبة الشابة.

ولا تخفي التصاقها بحالة حنان لأنها ترغب أن تعرف تفاصيل تلك الفترة خاصةً وأن الأسرة فقدت ثلاثة شبان في تلك المجزرة.

اتفقت حنان مع الطبيبة على مواعيد الجلسات التي ستكون جلسات تفريغ فقط، وبعدها تعتمدان خطة العلاج معاً، وكان كلتاهما تشعران بشعور غريب، فحنان كانت تشعر بأنها تريد نفض الغبار عن الماضي الموجع، أما الطبيبة فكانت رغبة استكشاف الحقيقة هي دافعها الأساسي، وهذه المرة الأولى التي تشعر فيها بهذا الشعور في عملها لأنها كانت حريصة أن تتعامل مع أصحاب المشاكل بمهنية وتتحكم بمشاعرها قدر ما تستطيع.

صباح يوم الجلسة الأولى، فكرت حنان في آخر لحظة بالاعتذار، ولكنها عدلت عن الفكرة وحسمت أمرها في الذهاب لعلها تستفيد. وصلت إلى المركز في موعدها، ودخلت لغرفة الطبيبة التي سألتها عن أفضل وضعية ترتاح فيها، لكنها قالت بأن لا فرق عندها، وهي فقط تريد أن تشرب فنجان قهوة لأنها لم تشرب قهوتها في البيت بسبب التوتر، رحّبت الطبيبة وطلبت لهما معاً قهوة سورية كانت تحضرها لنفسها خصيصاً.

ومع فنجان القهوة، بدأت حنان الحديث وأنها في وقت المجزرة، أي قبل حوالي أربعين عاماً، كانت في السابعة من عمرها، ورأت بعينيها والدها وجدها يُقتلان، ورأت جدتها وهي تكتم صرختها خوفاً على الباقين. وكيف قابلوا الجثتين، ولم يستطيعوا الدفن إلا بعد أن خرجت القوى الأمنية من المنطقة، وتجمع رجال الحي لدفن الموتى. وكيف دفنوهم في حدائق المنازل لأن الطرق إلى المقبرة تقطّعت، بل طرق المدينة كلها، ما أدخل الحي فيما يشبه المجاعة، واحتار الناس بتدبير أمورهم، ولا تنسى كيف أن أحضرت لهم إحدى الجارات كيساً من التمر عرفوا بعد ذلك أنه فداءٌ لزوجها الذي نجا من المجزرة.

ولاحظ أهل البيت أن ابنتهم (ونقصد عمة حنان) في حالة ذهول دائم، لا أكل ولا كلام، وصارت تخاف من الضوء والأصوات، وشيئاً فشيئاً لم تعد تعي أنها جائعة أو متعبة، وصار أهلها هم من يطعمونها ويهتمون بأمورها، ولم ينجحوا في مساعدتها على التعافي وظلت على هذه الحال حتى لاقت

ربّها بعد ذلك بسنوات.

وظلت جدتها قويةً تدير شؤون الأسرة في الصغيرة قبل الكبيرة، ولم تضعف رغم كل ما رأت. وزوّجت أمها من عمها الأعزب لتبقى في رعايتهم هي وأطفالها الثلاثة، وأنجبت له مولوداً أعطوه اسم عمه- الشهيد كما ترغب الجدة بوصفه- والد حنان. وتجري الأيام والناس تتجنب الحديث عن المجزرة رغم أنه لم يكن بيتٌ في المدينة إلا وذاق لوعةً بطريقةٍ ما، فهذا فقد بعض أولاده أو كلّهم، وتلك سحبوا ابنها ولم تعرف له مصيراً بعد ذلك، وهذا وتلك وهؤلاء.

وبمرور السنوات ومع انطلاق الثورة، كانت حنان قبل ذلك قد تزوجت وأنجبت طفلين، وفي مجزرة هلال رمضان، فقدتهم مع آخرين من أهل زوجها، والتفّت حولها الأسرة المكلومة من قبل، وشعر الجميع بأن التاريخ يعيد نفسه، لم تكن حنان قويةً مثل جدّتها، لقد شعرت بأنها منكوبة مرتين، وهذا بحد ذاته كفيلٌ بأن يُضعفها من داخلها.

ولأن حنان ضعفت بعد ما حلّ بها، وكان كلّ ما حولها يذكّرها بفجيعتها، وكذلك لأن آلة القتل لم تتوقف، وصارت تسمع عن جارٍ تمت تصفيته في المعتقل، وصديقة قتلها القنّاص على أطراف المدينة. ولأنها تمتلك قدراً من المال تستطيع معه التحرّك قليلاً، سافرت إلى لبنان وهناك رأت وجهاً آخر للمعاناة، عوائل تسكن في الخيم، وأخرى تستأجر الدكاكين لأنها لا تستطيع استئجار بيت، وأطفالٌ يبيعون المناديل عند الإشارات، وتعرفت على شابة احترقت بسخان الغاز، ولم تستطع أن تتعالج بسبب ارتفاع التكاليف وعدم تلقيها أي دعم من أي جهة، لذلك تركها زوجها، وحاولت حنان أن تساعدها ولكن الأمر أكبر من جهود فردية.

ومع كل هذه الأوجاع، ولأن حنان أيضاً لم تفلح في الحصول على إقامة رسمية في لبنان، فكرت بالسفر إلى تركيا، وريثما سألت أصدقاء وأقارب لها هناك، كانت الحكومة قد فرضت تأشيرة دخول على السوريين القادمين من بلدان أخرى. ما جعل حنان تعدل عن الفكرة، فهي لم تفلح في الحصول على التأشيرة، وعادت لترتيب حياتها في لبنان، وإذ بصديقةٍ تتصل بها لتخبرها بأنها تستطيع تأمين تأشيرة دخول لها إلى تركيا، وشجعتها على ذلك لأن أحوال السوريين في لبنان من صعبٍ إلى أصعب، ونجحت في إقناعها وما أن حصلت على التأشيرة حتى حجزت على أول طيارة إلى تركيا، ووصلت واستقبلتها صديقتها وساعدتها في تدبير أمور السكن وما إلى

ذلك. تتوقف حنان عن الكلام هنا، وتخبر الطبيبة بأنها تعبت، وترغب بالمتابعة في الجلسة القادمة. تكتشف الطبيبة عندها أنها استغرقت مع الحكاية لدرجة جعلتها تتفاجأ بتوقف حنان عن الكلام، وهذه أول مرة يحصل معها ذلك.

ومع الجلسة الثانية، تتابع حنان عن حياتها في تركيا. لم تكن تعاني من مشاكل مالية كما غيرها من السوريين، ولأنها وصلت بفترة لم تكن تركيا تعطي الأوراق الثبوتية بسهولة، دخلت في دوامة جديدة حرمتها الشعور بالاستقرار، وهو أهم ما كانت تبحث عنه عند قدومها إلى هنا. وكانت في كل عقبة تعترضها، تشعر بانتكاسة غريبة، وتبدي ردة فعل مبالَغٍ بها، فتراها تدخل في طور اكتئاب إذا لم تفلح في تثبيت عنوان المنزل، وتبكي إذا منعها الحارس من دخول دائرة الهجرة للسؤال عن أمرٍ ما، وفي الفترة التي لا تنشغل بها في أي أمر، تعود لقوقعتها الخاصة في حماة بمحطتين، معاناة من القتل والوحشية، ثم لبنان ومعاناة من التهجير واللجوء، ثم تركيا ومعاناة مركّبة لا تستطيع تحديد مصدرها.

ولا تدري حنان في الحقيقة لماذا تقوم بالربط لا شعورياً بين كل موقف صعب في الأوراق الثبوتية، أو عنصرية تتعرض لها من جيرانها، بأحداث حياتها السابقة. وتعتقد بأن سلسال الظلم الذي مرّت به يتقاطع بطريقة غريبة لطالما أدهشتها، والدها الذي قُتِل أمام عينها، ولاجئ سوري يُقتل عند الحدود، عمتها التي فقدت إدراكها من هول ما حدث أمام عينها، وسيدة سورية أصابتها نفس الحالة من فقد الإدراك، عندما ذهبت لشراء الخبز وعادت لتجد البيت قد سقط فوق أولادها بعد قصف الطيران، وعجوز تظهر قوية في عزاء ولدها الشهيد تذكّرها بجدتها التي كانت أكثر أفراد العائلة تماسكاً، والغريب في الأمر أنها تتجاهل حادثة قتل زوجها وأطفالها في المجزرة الرهيبة، ولا تعرف سبب ذلك، فهي تبكي عندما تسمع عن معاناة سوري في بلاد الواق الواق، بينما تتجمّد دموعها إذا تذكرت قتل عائلتها أمام عينيها.

والغريب في الأمر أن حنان والطبيبة صارتا تنتظران مواعيد الجلسات لأنهما تستغرقان بها ولا تشعران بالوقت. وبعد أن انتهت الجلسات المخصصة للاستماع، صار على الطبيبة أن تقدّم المساعدة إما بتوصيات عملية، وإما بتدابير أخرى قد يكون بينها العلاج الدوائي- هذا ما تعرفه حنان على الأقل- وبالفعل قدمت لها الطبيبة قائمة توصيات تساعدها على تجاوز مشكلتها،

ولكنها بعد ذلك أخبرتها بأن تعاملها معها كان بنكهة موجعة حدّ الإشباع، وبأنها كانت تستمع لها بقلبها ربما لأن لديها رغبة بالتعرف على ما جرى في مدينتها من شاهد عاصر الأحداث وأخبر عنها بمشاعره قبل مشاهَداته. ولأنها حدّثتها عن مدينتهما التي ما رأتها من قبل، وتعرّفت على وجه آخر للمدينة غير وجه الدم الذي سمعت عنه من أهلها المهجّرين منذ المجزرة العتيقة (وهذا ما صار الناس يسمونها به للتفريق بين المجزرتين).

ومع الأيام، وبعد محاولات حنان الالتزام بنصائح الطبيبة، بدأت تتغير نحو الأفضل، وتعيش حالة قريبة من التوازن. فصارت تعود من دائرة الهجرة بنفسية أفضل، حتى لو لم تفلح في إتمام أوراقها، وتستطيع التعامل مع جيرانها بهدوء، حتى لو عاملوها بعنصرية، بعد أن كانت تبكي أو تنكفئ على نفسها لأيام.

والفائدة الأكبر التي حصلت عليها حنان من العلاج النفسي، أنها تعاملت مع حزنها على زوجها وأطفالها بشكل طبيعي أو أقرب للطبيعي، فأصبحت تبكي وبحرقة أحياناً، وهذا بحد ذاته يجعلها تشعر بالراحة بعد قليل.

تريد حنان أن تكون إنسانةً طبيعية، طبيعيةً بحزنها، وبفرحها، أجل بفرحها، لأنها صارت تسعى أن تفرح، لذلك ظلت على علاقة مع الطبيبة، تلك الطبيبة الشابة التي صارت هي بدورها، وخارج نطاق العمل، تتواصل معها، وتطلب منها المساعدة والنصيحة في بعض الأمور، وهذا كان واحداً من الأسباب التي حسّنت نفسيّة حنان، وصارت كلتاهما تشعران بالامتنان للظروف التي وضعتهما في طريق بعضهما، ولمدينتهما التي جمعت قلبيهما من أول دقيقة تعارف.

ولأن الحياة التي تجمّع الناس تفرّقهم أحياناً، ها هي حنان في المطار تودّع صديقتها الطبيبة التي ستسافر بعد قليل إلى بلد آخر تكون لها فيه بداية جديدة. بالمناسبة، الطبيبة اسمها نفس اسم بنت حنان التي قضت في مجزرة هلال رمضان، وصارت تناديها باسمها بعد أن كانت تخاطبها قائلةً: يا دكتورة.

توصي حنان الطبيبة بأن تفتح قلبها للسوريين في البلد الذي ستذهب إليه كما فتحت قلبها لها، وتعدها الطبيبة بذلك، وهذا طبيعي لأنها بنت ذات الوجع وتفهمه جيداً. وحنان اليوم تسعى لإقناع الموجوعين والموجوعات مثلها بأن يفتحوا قلوبهم للحياة من جديد كما تفعل الآن، ولا ينطوون على أنفسهم كما فعلت هي من قبل.

تَرِكةٌ ثقيلة

في ذلك اليوم القاسي الذي حُفِرت كل تفاصيله في عقله، لا بل في قلبه، أو بالأصح في كلّ كيانه، قسوة ذلك اليوم قاسمه الشعور بها الكثيرون ممّن عاشوا المأساة ومعهم أهلوهم البعيدون المنتشرون في أصقاع الدنيا.

في السادس من شباط حيث مادت الأرض تحت الناس، اهتزت بقوة وسقطت المباني فوق رؤوس أهلها، تغير إحساس الناس بالوقت فالثواني صارت كأنها ساعات، لقد ذُهِلت الناس، وتبدّلت أحوالهم.

وها هو أحمد المفجوع بزوجته وطفله الرضيع يتمشّى في شوارع أنطاكيا المدمّرة، يتذكر محطات حياته التي وصلت به بعد طول معاناة إلى هنا، بعد

أن فقد أخوين له مع عوائلهم في قصف الطيران على قريته، ما جعل زوجته تُصاب بالهلع وترجوه أن يخرج بهم إلى تركيا، فوافق نزولاً عند رغبتها رغم أنه لم يكن يرغب بذلك لقناعته بأن القدر نافذ في أي أرض.

ومنذ سنوات يعيش في تركيا، يحب تلك البلاد ويشعر بأنها الأقرب إلى قلبه بعد بلده الذي تركه مجبَراً، ورغم كل الصعوبات التي يعاني منها (عملٌ دون ترخيص بساعات طويلة وأجر قليل، مدارس بعيدة يضطر هو أو زوجته أن يصطحبوا الأطفال خوفاً عليهم من الطريق مشياً على الأقدام من أجل توفير ثمن المواصلات، التنقل من بيتٍ إلى آخر بسبب أصحاب البيوت الذين يستغلون ضعفهم وعدم قدرتهم على الاعتراض على رفع الإيجارات) فإنه يشعر بشيء من السكينة ويكفي بأنه اعتاد مع الأيام على نظام الحياة هنا، لدرجة أنه صار يستغرب هو وزوجته إذا ظلوا في نفس البيت مدة طويلة.

ويتذكر أحمد جيداً كيف حاول بعض أقاربه إقناعه بالهجرة إلى أوربا، ولكنه رفض ووافقته زوجته في ذلك، الزوجة الرائعة والأم المتفانية التي كانت تساعده بالعمل في البيت بأي شيء يُـتاح لها، حفر الخضروات وصناعة نعال الأحذية وما إلى ذلك، يحاولون برغم القلّة إرسال بعض المال لأهلهم في سورية خاصة عند الضرورة، وفي مرة تعرض شقيق زوجته لحادث مروري أقعده في الفراش لعدة أشهر، احتار عندها أحمد وزوجته كيف يقدّمان المساعدة لذلك اضطرا لتأجيل شراء مدفأة جديدة مع بداية الشتاء، وأمضت العائلة شتاءها مع المدفأة القديمة التي لم تكن تعمل كما يجب، ولم يشعروا بدفءٍ طيلة ذلك الموسم الشتوي، ومع ذلك كانا يشعران بالرضا لأنهما لم يقصّرا في واجباتهما تجاه الأهل.

يمتلك أحمد إرثاً من والده، جزءً من بيت العائلة الذي لم يفكروا ببيعه في حياة أمهم، ولأن أخويه استشهدوا مع عوائلهم في حياة أمهم، انحصر الإرث بينه وبين شقيقاته اللواتي وافقن على بيع البيت بعد رحيل الأم وأشرف على الأمر أحد أصهار الأسرة. لم يكن البيع نظامياً بسبب عدم القدرة على الوصول لجهة تعطي أوراقاً نظامية، كان بورقة بدائية وشهود من أهل القرية، وكان السعر بسبب ذلك أقل من القيمة الحقيقية للبيت.

وصلت حصة أحمد إليه، وفكر كيف يمكن أن يستفيد منها، وشاور زوجته وأصدقاءه المقرّبين فأشاروا عليه بفتح دكان صغير يحميه من تعب الورشات الذي لم يعد يتحمله بسبب آلام في ظهره، ويرفع دخل الأسرة،

ويريح زوجته من العمل المجهد في البيت. وكان ذلك وبدأ بتنفيذ مشروعه، ودخل في دوامة الأذونات والتصاريح، ولم يصدق أنه انتهى منها، وفتح دكانه الصغير، وصار يعمل به ليل نهار وبكل حماس، وكانت زوجته تجلس في الدكان إذا اضطر لتركه لسبب من الأسباب، يتذكر جيداً كيف سأل عنه الزبائن واهتموا يوم أغلق الدكان لأن زوجته وضعت مولوداً جديداً، وكان السبب في ذلك أنهم اعتادوا على الشراء منه، وبنوا علاقات طيبة معه لأنه صاحب خلق وسماحة في البيع والشراء.

وبدأت أحوال العائلة تتحسن وصارت تستطيع التمتع ببعض الرفاهيات التي كانت محرومةً منها من قبل، وبدأ أحمد بالتفكير في تطوير عمله وصار يفكر في مستقبل أفضل لأولاده.

وجاءت ليلة السادس من شباط وسقط المنزل فوق رؤوسهم، ولم يستوعب أحمد ما حصل إلا بعد أن كان في الشارع يحمل طفلتيه، ويحاول الاتصال بزوجته التي لم تكن قد باتت في البيت، فهي مع رضيعها في بيت قريبتهم لتعتني بها بعد الولادة.

يرن الهاتف ولا ترد عليه، فيزداد قلقه، ويودع الطفلتين عند جارتهم التي أبدت قلقها، وكانت معه تحاول الاتصال بها دون جدوى. يذهب أحمد إلى بيت قريبتهم، ولا يكاد يعرف الطريق، لقد تغيرت ملامح المدينة في دقائق، ولم يفلح في التعرف على البناء، لأن الحي كله كان قد تهدّم.

وجد مجموعة من الناس يقفون مذهولين، بحث بينهم عن زوجته وقريبتهم صاحبة البيت وزوجها دون جدوى. بدأ أهله وأهل زوجته بالاتصال لكي يطمئنوا عليهم، ولم يكن يرد على الهاتف لأنه لا يعرف ماذا يقول لهم. حاول الحفاظ على الهدوء والتوازن، منع نفسه من البكاء في البداية، لكنه لم يفلح بذلك إلى النهاية، فقد بكى مع طلوع النهار بكاءً هستيرياً، وصرخ باسمها بأعلى صوته، وصار الواقفون حوله يحاولون تهدئته، رغم أن غالبهم قلقون مثله.

وتمضي الساعات والناس متجمهرة حول المجمع الضخم، أو ما كان كذلك، ولا فرق إنقاذ وصلت، وصار الأهالي يذهبون للبحث عنهم من منطقة إلى أخرى، وإذا وصلوا إليهم وطلبوا منهم القدوم إلى المكان كانوا يقولون بأن النقاط كثيرة وهم يعملون بأقصى طاقة ممكنة وينتظرون وصول فرق من خارج البلاد. ومع الساعات بدأ الأهالي الواقفون يعرفون بعضهم ما عدا أحمد لأنه لم يكن من سكان الحي أصلاً، وبعضهم اقتربوا منه وتعرفوا عليه

وعرفوا الأسرة التي كانت زوجته في بيتهم، وقالوا بأنهم لم يلمحوا لهم أي أثر بعد الزلزال، ما ضاعف خوف أحمد الذي بدأ بالتفكير بطرق يستطيع فيها إحضار فرق الإنقاذ إلى المكان بالتشاور مع الأهالي المنتظرين مثله. تعرف هناك على رجل يمني يعيش مع أسرته في هذا المجمع، وكان وقت الزلزال في عمله فهو يعمل في الليل وخرج سالماً، ولكنه فقد الاتصال بأسرته منذ الدقائق الأولى وها هو بين المنتظرين. ورأى سيدة تتكلم لغةً لا يعرفها ومعها كلب كبير تحاول الوصول مع رجلين إلى أقرب نقطة ممكنة ليستدلوا على مكان قريبهم تحت الأنقاض.

وعلى كومة حجر كانت سيدة مسنّة تجلس مطرقة الرأس وبين حين وآخر ترفع يديها للسماء وهي تبكي وتصرخ (يارب)، لقد رأى في الحقيقة مواقف كثيرة وأشخاصاً أكثر، وتزاحمت الأفكار في رأسه بطريقة كادت أن تُفقده السيطرة على تصرفاته. وعندما وصلت إحدى الفرق الأجنبية، تجمع الناس حولها، اقتربوا وعاينوا المكان، تكلموا بين بعضهم كثيراً وصاروا يعاينون بعض زوايا المكان ويصورون الأحجار الصغيرة والكبيرة ويرسلون تلك الصور عبر الهاتف، ويبدو أنهم ينتظرون قراراً بالعمل أو عدمه، والناس تنتظر معهم، وبعد أكثر من ساعتين من الانتظار بدأوا بالتحضير لمغادرة المكان، ولكن الناس منعوهم من ذلك، فاضطرت الشرطة للتدخل حتى استطاعوا مغادرة المكان. وعرفت الناس أنهم لم يجدوا نفعاً من محاولات الإنقاذ فالمجمع كبير جداً ويحتاج لمجموعة من فرق الإنقاذ تعمل مع بعضها وهذا غير متاح حالياً.

شعرت الناس بخيبة أمل وصاروا يبحثون عن خيارات فردية، منهم مَن أحضر رافعةً على حسابه، ومنهم مَن أحضر كاميرا حرارية لعلّها تنجح في التقاط نفس لواحدٍ من أهله، ومنهم مَن يأس وقرر مغادرة المكان وهكذا.

وكان على أحمد المستضعَف أن يعود إلى ركام بيته ويأخذ طفلتيه في حضنه، وكان أكثر ما يخيفه أن تسألانه عن أمهما وهذا ما كان بالفعل. أجاب بدموع صامتة، وتدخلت جارتهم لتساعد الأب في احتواء الموقف، ولكنها هي الأخرى غلبتها دموعها، وكيف لا وهي افتقدت جارتها والصديقة الأقرب لها في الغربة.

بدأت إحدى الطفلتين بالارتجاف وارتفعت درجة حرارتها كثيراً، فذهبت بها الجارة مع زوجها إلى أقرب نقطة طبية متحركة ليتم إسعافها. وهنا بدأ أحمد يعود إلى الواقع، عليه أن يكون قوياً ومتوازناً من أجل طفلتيه، فليس لهما

غيره الآن.

يحاول مثله مثل كثيرين، القيام مرةً أخرى ليبعث الحياة في نفس طفلتيه الفاقدتين لأمهما، ويبدأ وهو في المسجد الذي أقام فيه مع جيرانه، بالتواصل مع أقاربه لأنه يفكر بالانتقال إلى ولاية أخرى بعد أن خسر كلّ شيءٍ هنا، ولكن يأتيه اتصالٌ لكي يحضر للتعرف على جثة زوجته. وبالفعل يعرف زوجته التي غطا وجهها غبار كثيف، يعرفها من كفها الأيمن الذي ينقصه إصبع السبابة الذي فقدته وهي تصنع له الكبة المشوية في أول زواجهما.

وعاد في حزنه إلى نقطة البداية وبالكاد تماسك حتى دفن شريكته وطفله الرضيع معها. وضحك من مفارقات القدر فقد كانت هي من صمّم على الخروج إلى تركيا هرباً من القصف وها هي تلقى حتفها في الزلزال.

إنه يتذكر جيداً أنها طالما حكت له أنها تحلم بزوجة أخيه التي استشهدت في القصف، تحلم بأنهما جالستان في بستان وتشربان الشاي مشروبهما المفضل وتقول له مازحةً: (شكلي مو مطولة لألحقها).

بعد أن هدأت الأرض قليلاً ودفن الناس أحبابهم، وصارت الجهات المعنية تسعى لتنظيم الأمور، وهذا جعل أحمد ومعه الكثير من السوريين يشعرون بشيءٍ من الراحة، لأنهم تعبوا من عنصرية بعض الناس -وليس كلّهم بالتأكيد- الذين طردوهم من دور الإيواء وكانوا يمنعونهم من الوقوف على دور الطعام، ولكن هذا الشعور لم يدم طويلاً لأنهم اكتشفوا أن لا حصة لهم في الخيم التي تشرف عليها هيئة الإغاثة. وازدادت مع هذا القرار أحوال الناس سوءاً على سوء، فكر كثيراً بالعودة إلى سورية ولكنه أحجم عن ذلك لأن قريتهم أساساً تضررت في الزلزال وأخواته وأقاربه يعيشون في الخيم وبالكاد يستطيعون تدبير أمورهم.

وصار أحمد مشتت الذهن حائراً ماذا يفعل، يشعر بحيرةٍ كبيرة كيف يتعامل مع الطفلتين اللتين تفتقدان أمهما دائماً، وليس حوله من أهله وأهل زوجته مَن يساعده في ذلك.

أحمد اليوم استأجر قبو منزل متروك هو عبارة عن مكان مربع لا غرف ولا حمام فيه، ونجح بعد معاناة في الحصول على سجادة ومدفأة تساعد على اتّقاء البرد، ويفكر كيف يستطيع دفع أجرته والإنفاق على ابنتيه وهو لا يعمل، إذ ليس هناك أي أفقٍ للعمل في الوقت القريب لأن المدينة لم تعد للحياة بعد، بالإضافة إلى ذلك هو لا يستطيع تركهما لوحدهما لأنهما

تخافان، وما زالتا مستغربتين المكان وتنكران أن هذا بيتهما، وتسألانه باستمرار متى تعود أمهما، ويرجعون جميعاً إلى بيتهم إلى حياتهم قبل الزلزال حيث تذهبان كل يوم بعد العصر إلى دكان والدهما وتحصلان على كل ما تتمنيان. وذات مساء انفجر بهما طالباً ألا تسألانه بعد ذلك، ولكن الطفلتين سألتاه بكل هدوء عن سبب طلبه، ما جعله يعود إلى نفسه وينتبه أن عليه أن يكون أكثر هدوءاً.

صار يحاول بعد ذلك ترتيب وقته وتحديد أولوياته، يجب عليه العمل، كما ويجب عليه الاعتناء بالطفلتين، ولأنه نجح في الحصول على عمل طلب مساعدة جارتهم الطيبة صديقة زوجته في شؤون بناته بعد أن أقسم عليها أن يعطيها مبلغاً شهرياً. ولكنها رفضت، فاحتار كيف يعبر لها عن امتنانه إلى أن وجد فرصةً سانحة ليقدم للعائلة خدمةً مفيدةً.

ومشت بهم الأيام وما زالوا في دوامة المعاناة، معاناة مركبة يتشاركون بعضها مع أهل البلد وينفردون بوجهٍ خاصٍ للمعاناة، ذلك الوجه الذي انطوى على كثير من الظلم جعل الكثير من السوريين يعيدون حساباتهم في البقاء بهذه المدينة.

لا يستطيع أحمد أن يعيد حساباته في الحقيقة لأنه صار مرتبطاً بهذه المدينة، عاش فيها سنوات، سنوات فيها الكثير من المعاناة، وفيها أيامٌ جميلة لا ينساها، هذا إضافةً إلى بعضه يرقد هنا.

كل هذا استذكره أحمد وهو يمشي في شوارع أنطاكيا مع بداية الربيع، ليصل إلى قبر زوجته وطفله، ويجد الأزهار نبتت بقربه، فيشعر بمشاعر جميلة، ويتخيل زوجته وهي تحمل الطفل بين يديها وتزين شعرها بهذه الأزهار.

يهز رأسه ليصحو من هذا الخيال، ويقرأ الفاتحة ثم يعود أدراجه إلى البيت، فاليوم عيد ميلاد ابنته الكبرى وقد قرر الاحتفال به حتى يُشعرها بأن ما زال في الحياة بصيص أمل.

وهذا الأمل هو زاد أحمد للقيام بأعباء هذه التَرِكة الثقيلة. نعم، ولكن ثقلها هو أجمل ما فيها.

على أمل اللقاء

تعيش زهرة في تركيا اليوم مع زوجها وطفلها، رغم أنها تعاني من الأوضاع القانونية والإدارية، ورفضت ترك البلاد عندما هاجر أبوها وإخوتها. فهي تعيش على حلمها الشخصي، هذا الحلم هو الزاد الذي يمدّها بالطاقة لتستطيع تحمّل الظروف القاسية التي تعيشها هنا.

لم تكن حياة زهرة في سورية تشبه حياة باقي الأطفال فقد انفصل والداها وهي في عمر صغير، ولا تكاد تتذكر يوماً عادياً عاشته معهما مثل غيرها من الأطفال، لأنهما كانا في شجار مستمر. وبعد انفصالهما، بدأت مرحلة جديدة في حياتها، وصارت تعيش بين جدتيها من دون أدنى شعور بالاستقرار- هذا الشعور الذي يحتاجه الطفل مثلما يحتاجه الكبير- تزوجت أمها بسرعة وسافرت إلى بلدٍ آخر، وسافر والدها في رحلة عمل استمرت مدة ليست بالقصيرة، ثم عاد إلى سورية وتزوج من جديد، وأصرّ أن تعيش معه في بيته لتتعود على الواقع الجديد، وهذا ما كان.

وبكل أسف، لم تكن حياتها كما تتمنى، وعانت من ظلم زوجة أبيها الشابة المغترّة بجمالها، والمهووسة بالعناية بنفسها. ولأن وضع الأب المادي كان جيداً، وبسبب إهمال زوجة أبيها لشؤون البيت، أحضر الأب خادمةً مقيمة، خاصة بعد أن حملت بمولودها الأول. وبسبب التكبر وسوء المعاملة لم تستمر أي خادمة في العمل معهم أكثر من شهر، ولم تهتم تلك المرأة بذلك، لأنها في الفترة التي لم تكن في البيت خادمةٌ تعتني بشؤونه، كان الأمر يقع على عاتق زهرة الطفلة التي من المفترض أن تلهو وتلعب. كانت تنظف وتعدّ الطعام، وبعد ولادة الطفل، ترتّبت عليها مهمة إضافية هي العناية بالطفل الرضيع، فكانت تصحو قبل موعد المدرسة بكثير لكي تصنع الفطور وتلبي احتياجات أخيها من النظافة والرضاعة الصناعية، وبالكاد أكمل الطفل عامه الأول أنجبت أمه توأمين.

لقد كانت زهرة تحب إخوتها، ولكنها في ذات الوقت مرهقة جداً من العناية بهم، ولم تكن تعتب على والدها لأنه لا يعرف عن معاناتها شيئاً، فهي لم تخبره يوماً بظلم زوجته خوفاً أن يطلقها ويتزوج من جديد، فيعاني إخوتها مع زوجة أبٍ أخرى كما تعاني هي مع أمهم، حتى لو كان ذلك على حساب

معاناتها وكذلك مستقبلها، لأن المسؤوليات الكثيرة أثّرت على مستواها الدراسي. وتمرّ الأيام، وتكبر زهرة ويكبر معها إخوتها الثلاثة، وتنجح في الشهادة الثانوية، ويفكر والدها في إرسالها لمدينة أخرى حتى تكمل تعليمها، فتعترض زوجته بشدة، ويكبر الخلاف بينهما. وسرعان ما تتناهى لمسامعه قسوة معاملتها لزهرة بعد أن أخبرته أمه وحكت له الكثير من الحوادث، وعندما عاتبها لأنها كانت تخفي عنه ما تعرف من معاناة زهرة، قالت له بأن ذلك كان نزولاً عند رغبتها وخوفاً على إخوتها أن يلاقوا ذات مصيرها، وهنا طار صواب الأب الذي واجهها بكل ما عرف، فلم تنكر بل قدمت تبريرات أكثر قسوةً من أفعالها، وكانت هذه ساعة الفراق بينهما. وبعدها قررت زهرة أن تعدل عن فكرة الدراسة في مدينةٍ أخرى، لأن إخوتها صاروا أكثر حاجةً إليها، والتحقت بدراسة متوسطة لأن علاماتها متواضعة، ولأن جهد الدراسة فيها أقل، وهذا لتوفر وقتها وجهدها للعناية بوالدها وإخوتها.

وقبل أن تكمل دراستها، قامت الثورة، وسرعان ما تبدلت الأحوال. ولأن منزلهم كان على مشارف نقاط الاشتباك، نزحوا منه، ومنذ تلك الساعة لم تعد الأسرة تعرف الراحة، فمن بيتٍ إلى آخر ومن قريةٍ إلى جارتها، وصارت زهرة تتحمل حتى مسؤولية القرار، لأن والدها صار يخرج للعمل في مناطق بعيدة مضطراً لذلك، لأن أحواله المادية تراجعت بعد أن خسر تجارته وبيته.

ومع التطورات المتسارعة على الأرض، واشتداد القصف فوق رؤوس الناس، خرج الأب بزهرة وإخوتها إلى تركيا، وكان دخولهم إليها مع بعضهم أشبه بمعجزة، فقد ضاع أحد إخوتها في الطريق، ولم تفلح كل المحاولات في العثور عليه، ومضت ساعات ثقيلة على الأسرة، واقترح عليهم بعض رفاق السفر أن يكملوا طريقهم ويبحثون عنه من خلال الفضاء الإلكتروني، وهناك الكثير من الحالات التي نجح الأهل فيها بالعثور على أطفالهم. ويكاد الأب يهتدي للفكرة، بالإضافة إلى أنه كان يريد الاطمئنان عن بقية أولاده، لأنه صار بعد هذه الحادثة يشعر بالخوف الشديد عليهم، ولكن زهرة رفضت بقوة فاجأت والدها، فقد كانت هذه المرة الأولى التي تعارضه بحياتها، فهي تعتبر إخوتها قطعةً من روحها لأنهم كبروا أمام عينها، ورعتهم بقلبها وسهرت عليهم ومعهم. وبين هذا الأخذ والرد، يعود الطفل الذي وجدته مجموعة أخرى على الطريق، وتكمل الأسرة طريقها، وتدخل تركيا، وتبدأ بتأسيس حياةٍ جديدة، فيها الكثير من الصعوبات التي لم تبدأ مع الحصول على بطاقة الحماية المؤقتة، ولم تنتهِ مع ترحيل الأب دون وجه حق، لولا

تدخّل العناية الإلهية، ومساعدة المحامي الذي أنهى الأمر بدفع غرامةٍ عالية، أعادتهم إلى نقطة الصفر أو ربما تحتها، بعد أن بدأوا يقفون على أرضٍ ثابتةٍ إلى حد ما. وتعييهم الخيارات، كيف يبدأون من جديد؟ لقد فقدوا كل ما حاولوا بناءه من قبل، ولكن لا فائدة، وبعد أكثر من محولة لم تنجح، قرر الأب الهجرة بهم إلى أوربا وعقد العزم على ذلك.

في هذه الأثناء تتواصل مع زهرة أمها التي انقطعت أخبارها عن الجميع منذ سافرت مع زوجها الجديد، وتخبرها عن أسباب هذا الانقطاع، وتطلب مساعدتها لكي تستطيع القدوم إليها في تركيا، لأنها الآن وحيدة وبحاجةٍ لها. وهنا تقرر زهرة البقاء في تركيا، لأن السفر إلى أوربا سيمنعها من لقاء أمها التي لم تعد تستطيع الدخول إليها بعد أن خرجت منها بطريقةٍ غير نظامية. قال لها أبوها بأنها بهذه الطريقة تقامر بمستقبلها، ولكنها كانت قد اتخذت قرارها وانتهى الأمر.

ومع سفر والدها برفقة إخوتها، شعرت بأن قلبها انخلع من مكانه، فهذه المرة الأولى التي تفارقهم فيها. ولكن الأمل بلقاء أمها وحده هو الذي يصبّرها على فراقهم. وما بين وجع الفراق وأمل اللقاء، تبدأ زهرة بالتأقلم مع حياتها الجديدة، وحيدةً من جهة ومن دون دخلٍ من جهة أخرى، فبدأت بالبحث عن عمل لكي تتدبّر أمورها. وفي ثنايا البحث تعرّفت على شاب، وسرعان ما تطورت المشاعر بينهما وتقدّم لخطبتها، وعقدوا القران على أحد برامج التواصل الاجتماعي. وحزنت لأن والدها وإخوتها ليسوا إلى جانبها، وتمنت أن تستطيع أمها الوصول قبل أن تتزوج، ولكن يبدو أن هذه الأمنية بعيدة لأنها فشلت في أكثر من محاولة لإدخالها، وقد حاول خطيبها المساعدة في الأمر دون جدوى.

ينجح والدها وخطيبها وحتى أمها بإقناعها بالزواج، فتنزل عند رغبتهم. وبالفعل تتزوج زهرة وحيدةً ولكن زوجها نجح في قتل شعور الوحدة عندها. إلا أن هذا الزواج لم يُكتَب له أن يكون رسمياً، بسبب خطأ في بطاقة الحماية الخاصة بزهرة، إذ إن الموظف كتب حالتها الاجتماعية متزوجة من دون أن يسألها، وكانت قد حاولت قبل ذلك تصحيحها بأكثر من طريقة ولم تنجح، لجأت لخيارات إدارية وأخرى قانونية برفع دعوى، وخسرت الكثير من المال والوقت، كان كل هذا قبل أن تتزوج، واليوم وبعد أن تزوجت جدّدت هذه المحاولات ولم تصل إلى نتيجة.

أنجبت زهرة بعد سنةٍ من الزواج مولودها الأول، وكان ما خافت منه، عدم

قدرتهم على تسجيل المولود لأنهم لا يمتلكون عقد زواج. وكان عليهما أن يختارا تسجيله باسم الأم أو الأب، هكذا قالوا لهم في دائرة الهجرة.

شعر الأبوان بغصّة أفقدتهما الفرحة بالمولود، وكانا في نفس الوقت خائفَين من اتخاذ قرارٍ خاطئ لا يصبّ في مصلحة الطفل، فعلى الإنسان أن ينظر إلى الأمام ويفكر بالمستقبل.

نصحهما أحد المحامين بالسفر إلى خارج تركيا وتثبيت الزواج وتسجيل المولود، راقت لهما الفكرة، ولأنهما لا يمتلكان المال الكافي فكرا بالاستدانة، وباشرا بالأمر، وجمعا أكثره، وسجلا على ورقة اسم كل شخص والمبلغ الذي أقرضه لهما. ولكنهما لم يستطيعا مغادرة البلاد لأن زهرة لم تفلح في الحصول على الأذونات المطلوبة، رغم أنها قدّمت كل الثبوتيات اللازمة.

وقررت زهرة وزوجها ألا ينجبا طفلاً آخر قبل أن يستطيعا حل المشكلة وتثبيت الزواج أو مغادرة تركيا، هذا الأمر الذي ترفضه بشكل قاطع لأن أمها حتى اليوم لم تستطع الدخول إليها.

حاول الأب البعيد مساعدتها عن طريق صديقٍ له في تركيا، ذلك الصديق كان صاحب علاقاتٍ واسعة مع جهاتٍ تعمل بما يتعلق بحقوق اللاجئين، ووعده بوضعها في خدمة زهرة لكي تستطيع تجاوز المشكلة بنجاح.

صارت أم زهرة تشعر بتأنيب الضمير، وفي يومٍ قالت لها بأنها عدلت عن فكرة القدوم إلى تركيا. فأصيبت زهرة بما يشبه الصدمة النفسية، ما اضطر الأم أن تقول لها بأنها قالت لها ذلك فقط لأنها تريدها أن تكون مرتاحة، ويبدو أنها لن تكون مرتاحةً وهي على هذه الحال.

وفي هذه الدوامة من المشاكل، تعيش زهرة اليوم صراعاً بين قلبها الذي يريد البقاء هنا على أمل لقاء أمها، وعقلها الذي يريد السفر من أجل تثبيت الزواج ومنح الطفل حقه في الاسم والنسب، ذلك الحق الذي حرِم منه بسبب خطأ بسيط، ربما يكون غير مقصود، ولكنه بكل تأكيد كان كارثياً على حياة زهرة، التي صارت تشعر بأن هذا الأمر هو امتدادٌ لمعاناتها منذ وُلدت.

وكلما احتضنت طفلها شعرت بالخوف عليه من المستقبل الذي ينتظره هنا فتقرر السفر، وكلما تواصلت مع أمها التي لم تتمتع معها بأي مشاعر من قبل، تتمنى أن تعوض هذا الحرمان ولو ليومٍ واحدٍ في حضنها.

ولعلّ إشارةً ما، أو حدثاً- فردياً كان أو جماعياً- يساعدها على اتخاذ القرار الصحيح.

مع وقف التنفيذ

(على الله) هذه الجملة التي تجيب فيها أم عدنان مَن يسألها عن أخبار عدنان، فقد ملّت من الكلام الذي تعرف تماماً أنه بلا فائدة، لأن المهتمين بالأمر من حولها هم المستضعَفون البسطاء مثلها، والذين لا يستطيعون تقديم أي مساعدة. أما الأكثر وصولاً وقدرةً على مد يد العون فلم يفلحوا في ذلك، رغم الكثير من المحاولات.

إنه اليوم الخمسون، أجل الخمسون، لأن أمه صارت تمتلك روزنامة خاصة بها ففي كل صباح تقول لأهل البيت حولها بأن اليوم صار لولدها أربعة وثلاثون يوماً على سبيل المثال، لذلك يعرف الجميع من أم عدنان بأن اليوم هو الخمسون.

(خمسون يوماً على ماذا؟) هذا ما سألت عنه الجارة الجديدة التي سكنت في نفس الحارة منذ أيام، عندما كانت ترافق جارةً تسكن قرب العائلة منذ سنوات، بعد أن سلمتا على أم عدنان وزوجته الذاهبتين لمقابلة المحامي لمعرفة آخر الأخبار، ولذلك قالت تلك الجارة لرفيقتها بأنها ستخبرها عن الخمسين يوماً على ماذا، لتترك السيدتين تمضيان في طريقهما لسؤال المحامي.

وبعد أن دخلت الجارتان إلى بيت واحدةٍ منهما وبدأتا بتحضير الطعام الذي أحضرتاه، لتخبر الجارة- والتي هي قريبتهم في الأساس- جارتها بحكاية الجيران والخمسين يوماً، وتبدأ كلامها بالقول (الله يعين الناس يا أختي) وتتابع:

كانت العائلة تعيش في حالةٍ من البحبوحة المالية، ما جعل الأب يساعد أولاده في الزواج وإنشاء مشروعٍ خاص لكل واحدٍ منهم، وحتى بناته ساعدهن وقدم لهن ما أردنه لتحسين واقع عوائلهن. وكانت يده ممدودةً للخير، يساعد كل مَن يقصده. ومع قيام الثورة دخلت العائلة كلها في العمل، ابتداءً من التظاهر، مروراً بتقديم الأموال للعوائل النازحة، وصولاً إلى أقصى ما يمكن تقديمه، الشهداء. أجل، فقد قدمت تلك العائلة شهداء قضوا بطرقٍ مختلفة، ابنتهم مع عائلتها في قصف للطيران، وحفيدهم على

جبهة قتال مع النظام، وزوجة ابنهم برصاص قناص.

ضاقت أحوالهم المادية أيضاً بعد أن قُصِفت الورشة الكبيرة، والتي هي عماد رزق العائلة الأصلي، حار أبو عدنان ماذا يفعل بالأسرة الكبيرة فهو ما زال يعتبر نفسه المسؤول عن أبنائه وعوائلهم، واستشار زوجته التي أشارت عليه أن يبيع ما تبقى من ممتلكاتٍ متفرقة ويخرج بالعائلة إلى تركيا، تردّد قليلاً ولكنه حسم رأيه بالسفر خاصةً بعد أن راقت الفكرة لبقية العائلة وباشر بالتنفيذ.

كان أبو عدنان ذا شخصية قوية ولا يقبل إلا أن يكون كل شيءٍ تحت إمرته، لذلك تأخر في بيع العقارات لأنه كان كثير التدقيق، ولا يرضى إلا أن يكون كل شيءٍ على أحسن حال وهذا غير متاحٍ بالطبع في هذه الظروف الصعبة، وإن كانت كلمة (صعبة) أضعف بكثير من أن تصف الواقع، أدّى ذلك التأخر في البيع إلى تعطيل السفر لفترة صارت الطرق خلالها أكثر صعوبةً وخطراً وأكثر كلفةً مادية، ما جعل أبا عدنان يشعر بضغط إضافي، وبشقّ الأنفس تنجح العائلة بالوصول إلى تركيا.

هنا تبدأ محطةٌ جديدة أصعب من كل ما مضى، وعلى الجميع أن يعمل لكي يتدبّروا أمور معيشتهم لأنهم وصلوا إلى تركيا صفر الأيدي.

كانت أم عدنان قد خبّأت بعض مجوهراتها على عادة (خبّي قرشك الأبيض ليومك الأسود) والنساء أمهر مَن يطبق هذه القاعدة، أعطت الذهب لزوجها لكي يبدأ بمشروعٍ صغير يعيلهم، وبعد تفكير واستشارة بعض الأصدقاء الذين سبقوهم، قُرر فتح معمل حلويات صغير ويعمل فيه هو وأبناؤه، وكان ذلك بالفعل، وباشروا بالتنفيذ وبدأت الأمور تمشي بهم نحو الاستقرار، وما إن التقطوا أنفاسهم بعض الشيء وصاروا يفكرون بتوسيع عملهم، حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد هاجم المعمل وحرقه جيرانٌ لهم لأسبابٍ تتعلق بالمنافسة في السوق المحلية، ولا تخلو من عنصرية، وذلك لأنهم قالوا لهم تصريحاً وتلميحاً في أكثر من مرة إن عليهم العودة إلى بلادهم والعمل فيها، وأنهم يجب أن يتركوا سوق الحلويات لأبناء المدينة فهم أحقّ بالرزق فيه.

قدّم أبو عدنان شكوى رسمية للشرطة، ولاحظ ضعف الاستجابة منهم، رغم أنهم قدّموا لهم أشرطة التصوير في كاميرا المراقبة وتظهر فيها بعض الوجوه، فهم الرجل من هذه الاستجابة الباردة أن حقهم ضاع، وأن لا قدرة عندهم على استرجاعه، وصارح زوجته بمخاوفه كلها وكانت أم عدنان كالعادة تعمل على بث روح القوة في كل مَن يشكو لها همّه من العائلة، فهي ماهرةٌ

جداً في إخفاء قهرها وحزنها عن كل مَن حولها، وكان أبو عدنان يعرف ذلك جيداً ولطالما لجأ إليها عندما يكون هارباً من همومه، وبخبرتها في الحياة ومعرفتها بطباع زوجها وفهمها لمشاعره أحست أن هذه المرّة ليست مثل كل مرة، لا تعرف السبب ولكنها رأت في عينيه نظرة انكسارٍ لم ترَها من قبل رغم أنه تعرض للكثير من الأزمات في حياته.

وبدأت العائلة بإحصاء خسائرها في المعمل، ويبدو أن الخسارة كانت أكثر من توقعاتهم، إذ لم يبقَ في المكان شيءٌ صالحٌ للاستعمال أبداً، حتى الجدران والسقف تضرروا بشكل كبير. ولم يكن على لسان أبي عدنان إلا قول (الحمد لله) وكان يقول لأولاده بأنه يشكر ربه في كل لحظة أن لم يكن أحدهم في المعمل وقت الحريق وتعرّض للأذى، وكانت أم عدنان توافقه في ذلك.

وما إن بدأوا يستعيدون توازنهم ويفكرون في خياراتهم للمرحلة القادمة حتى جاء مالك العقار الخاص الذي احترق يريدهم أن يُرجعوه له ويطالبهم بإصلاحه بعد أن تضرر بالحريق، وكانت تكاليف إصلاحه مرتفعة جداً، ما جعل العائلة كلها تقع في حيرةٍ كبيرة، كيف لهم تدبّر الأمر وهم الآن (السماء والطارق) كما يقال، نصح أحدهم أبا عدنان بعدم تسليم المكان لصاحبه في الوقت الحاضر لأن لديه متسعاً من الوقت بموجب العقد المبرَم بينهما، ولكن ...

في الحقيقة، كان الرجل يخاف على أبنائه ويسعى لمنع أي احتكاك بينهم وبين أتراك لا يخافون الله. نعم، لأن أبا عدنان كان يصرّ أن ليس كل الأتراك عنصريون، ولكن قدره هو الذي وضعه بين مَن لا يخافون الله، وأن سوء الخلق موجودٌ بين السوريين والأتراك وكل شعوب الأرض، قالت له حينها زوجة ابنه بأن هذا صحيح ولكن مشكلتنا هنا في تركيا أن لا قوانين واضحةً تحمينا من العنصرية التي تسبب سوء المعاملة، وأحياناً ضياع الحقوق، وهذا ما جعل الشرطة التي لجأنا إليها تهمل شكوانا تماماً، وافقها الجميع الرأي في ذلك.

عاشت الأسرة في حالة تخبط، ولم تعرف كيف تتصرف بالمال الذي تُصلح فيه ما أتلفه الحريق، وبعد عدة أيام، جاء الرجل مرةً أخرى وطالبهم بتسليم العقار، وعندما قال له أبو عدنان بأن عليه أن يصبر حتى يتدبروا المال الكافي لإصلاحه، خاصةً وأن بينهما عقداً موثقاً لم ينتهِ بعد، صرخ الرجل به وتلفظ بشتيمةٍ سمعها عدنان، فطار صوابه وشتم الرجل. وهكذا تطور الكلام بينهما

حتى وصل الأمر بالرجل أن ضرب أبا عدنان الرجل المسنّ، فما كان من عدنان إلا أن ضربه أو كاد أن يضربه، فتدخل الأب ومنعه، وطلب من الرجل المغادرة الآن قبل أن يتطور الخلاف بينهما، فخرج والشرر يتطاير من عينيه.

وما هي إلا ساعة واحدة حتى حضرت الشرطة وألقت القبض على عدنان وأبيه، واقتادتهما إلى مركز الشرطة في الحي. وريثما استوعبت الأسرة ما حدث، ذهب الابن للاستفسار، ولم يصل لأي خبر عنهما، وعاد أدراجه إلى البيت يجرّ أذيال الخيبة.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت أم عدنان مع زوجة ابنها إلى محامي كانت قد تعرّفت عليه زوجة الابن في اجتماعٍ يخص حقوق اللاجئين، وأعطى رقم هاتفه لمَن يرغب. وعندما قابلهما وشرحا له كلّ ما حدث، بدأ بالاتصالات والسؤال حتى استطاع الوصول إلى خبر.

ولكن للأسف، كان الخبر قاسياً إلى الحد الذي جعل أم عدنان تسقط مغشياً عليها، وذلك عندما عرفت أنهما الآن في مركز الترحيل، وها هما تعودان إلى البيت لتخبرا الباقين، وعندما عرفوا أُسقِط في يدهم، وفقدوا القدرة على التركيز واتخاذ القرار المناسب، ولكن أم عدنان عادت قوية كما كانت وطلبت منهم الهدوء والتوازن. هنا إنفجر ابنها بنوبة من الصراخ الهستيري فهو لم يعد قادراً على التوازن والهدوء، ولم يهدأ إلا بين أحضان أمه، ولكن طفلته الصغيرة بدأت بالبكاء والصراخ عندما رأت والدها على هذه الحال، وانتهى الأمر بهم بإسعافها إلى المستشفى بعد أن ارتفعت حرارتها وأصيبت بما يشبه الصدمة النفسية، يبدو أنها شعرت بأن الأمور في البيت ليست على ما يرام، فترجمت مشاعرها هذه بالصراخ وارتفاع درجة الحرارة.

حاولوا كثيراً حل المشكلة بعد أن عرفوا أن السبب هو شكوى كاذبة قدّمها ضدهم مالك العقار، الذي تواصلوا معه عن طريق معارف مشتركين من أهل الحي (سوريين وأتراك). لكن هذه المحاولات كانت بلا جدوى، أم عدنان دعت جاراتها وصديقاتها إلى ختمة القرآن الكريم والدعاء من أجل رفع الكرب، بينما زوجة الابن الشابة سألت في المجموعات عن طريقة تساعدهم في الإفراج عن زوجها ووالده الذي كانت متعلّقةً به وتشعر بأنه عوّضها عن والدها الذي رحل منذ طفولتها.

كلّ هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح عندما عرفوا بأنهما أصبحا اليوم في الشمال السوري ومن دون أي توقيع منهما على أي أوراق مفادها أنهما يريدان العودة إلى سورية، لقد كان عدنان متأكداً من ذلك، وكان حذراً

وصادقاً في كل كلماته وتصرفاته، هذا ما أخبر به زوجته ، كما حدّثها عن مشاهَداته في مركز الترحيل، حيث كان الغالبية موجودين دون وجه حقّ، أو ربّما بمخالفاتٍ بسيطة، وأكثر ما لفت نظره أن هناك بعضهم كانوا هناك بدلاً من أب أو أخ، حيث يتمّ إيقافهم- رجالاً ونساء- بهدف الضغط على ذلك الأب أو الأخ حتى يسلّم نفسه لدائرة الهجرة، بل ورأى شاباً عراقياً وآخر أفغاني تمّ ترحيلهم مع عدنان وأبيه إلى سورية، لم يخبر عدنان زوجته فقط بذلك، بل ظهر عبر وسائل التواصل الاجتماعي وشارك مشاهَداته مع الناس وتحدّث عن تفاصيل ما حصل معهم.

ما زال عدنان وأبوه حتى اليوم في الشمال، لا يستطيعان بدء حياةٍ جديدةٍ بعيداً عن أهلهم، وأبو عدنان تفاقمت مشاكله الصحية بعد أن تغير الوضع عليه، فقد كان معتاداً على أن أم عدنان هي التي تهتمّ بمواعيد أدويته، ويحاول ابنه الاهتمام بعلاجه وطعامه قدر ما يستطيع. كما أن قلة الأدوية ونقص العلاج جعل صحته تتراجع، وصار اليوم يعمل بأجرةٍ يومية بالكاد تكفيه ووالده أساسيات الحياة.

وبقية العائلة تعيش في تركيا كذلك على الكفاف بعد أن فقدوا مصدر رزقهم الذي احترق وقدّموا ما تبقى من مال لمالك العقار لإصلاح أضرار الحريق.

ويعمل الابن كذلك مثل أخيه عدنان بأجرٍ يومي بسيط، وتساعده أمه وزوجته وزوجة أخيه عدنان بما يستطعن من خلال أعمالٍ منزلية يكسبن منها القليل الذي لا يكفي الأساسيات، وهم في حيرةٍ من أمرهم كيف يستطيعون العيش من جهة، وكيف يستطيعون إدخال عدنان وأبيه من جديد.

وها هم اليوم على روزنامة أم عدنان في اليوم الخمسين من الترحيل.

بهذه الجملة أنهت الجارة حكايتها عن هذه العائلة التي نكبتها ظروفٌ لا يد لهم فيها، لم تجد الجارة المستمعة للحكاية ما تقول وظلت صامتةً إلى أن قالت لها: دعينا ننهي صنع هذا الطعام ريثما تعود أم عدنان وزوجة ابنها، ونذهب إليهم بطبقٍ منه.

الفهرس

على أبواب الأمل بالحرية للشعب السوري 1
إهداء..... 2
مقدّمة 3
براءة والحلم الضائع 4
مصطفى الاسم الحلم..... 9
نعيش بالأمل..... 14
لا تكسروا قلمي..... 19
المال والبنون..... 25
خالد مع خالد..... 30
مشاعر لا تعرف النسيان..... 35
تَرِكةٌ ثقيلة 40
على أمل اللقاء..... 46
مع وقف التنفيذ 50

جنـــى وطـــن

Jana Watan

Merhamet Yardımlaşma Derneği

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©